الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

بشار [١]

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجوخ[٢] بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجَدُّه يرجوخ من طُخارُسْتان ممن سَباهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ — ٨١هـ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرقّ . وكان أولا فى عداد رقيق خِيرَة القُشَيْرية امرأة المهلب ، ثم وهبته لامرأة من بنى عُقَيْل ، وفى ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلية أنْ أعتقت بُرْدًا . وبذلك عُدَّ هو وابنه فى موالى بنى عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول[٣] :

وقيصرٌ خالى إذا عددتُ يوماً نَسَبى

وإن صح ذلك كان فارسىّ الأب رومى الأم ، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة[٤] ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفى ذلك يقول[٥] :

---

(١) انظر فى بشار وترجمته الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٣٥ ، ٦/٢٤٢ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ ونكت الهميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازنى (طبع عيسى الحلبى) وبشار ابن برد لعمر فروخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغانى ٣/١٣٥ .

(٣) الديوان ١/٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤/٤٥٣ .

(٥) أغانى ٣/١٤٢ .

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلم موئلا

وكان أبوه طَيَّانا يعيش من ضَرْبِ اللَّبِنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابين يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْن إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبْتَر اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عُقَيْل على أن يتمثل السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل بين جميع الشعراء ، فكان طبيعيًّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربًا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) . وعادوا إلى يرد يرددون شكواهم ، فتلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فِقْهُ بُرْدٍ أغْيَظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمَّم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة[١] . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا[٢] ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الثَّنَوِيَّة المجوسية والدهرية الهندية[٣] ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شىء من الفلسفة والمنطق،على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

---

(١) الديوان ٣/١٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجْعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين [١] :

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا [٢] :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتنبَّهـوا يا معشرَ الفُجَّارِ
النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يَسْمو سموَّ النارِ

وتصدّى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما رمى إليه من تصويب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، فى رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقدسونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان فى تفضيل الأرض وذكر له العلة التى بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقده وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا [٣] :

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لايبيت على حِقْدِ [٤]

غير أن بشارا مضى يُعْلن زندقته لا يزدجر مصرحًا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس [٥] . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جَبْرِىٌّ ، بل لا شىء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية [٦] .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراما أن رآه يكثر من غزل مادىٍّ آثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها [٧] ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعيًا إلى قتله

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٥.
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء (نشر كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .
(٤) ذحل : ثأر.
(٥) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أغانى ٣/١٨٢ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنَّف[١] المكنَّى بأبى معاذ من يقتله[٢] ؟ ! » وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ، وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائبًا عنها حتى توفى عمرو[٣] ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حرَّان فى سنة ١٢٧ فيمدح سليمان[٤] بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله[٥] ، فيتجه إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويُغْدِق عليه من برّه وصلاته السنية[٦] ، ويُغْدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصبًا قويًّا ، وصادف ذلك هوى فى نفس بشار إذ كان ولاؤه لبنى عُقَيل القيسيين ، وكان مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها فى حروبه مع الثوار من بنى عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه القيسيين فخراً عارما .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ، وطوَّحت جيوشهم ببنى أمية ووليهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانيًّا مثله ، فوفد عليه يمـــدحه ، وخالد يجزل له فى العطاء والإكرام[٧] . ويحسُّ بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنَّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

---

(١) المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يليس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث ، هو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغانى ٣ / ١٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٦ والأغانى ٣ / ١٤٦ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٥ .

(٤) الديوان ١ / ٢٩١ والأغانى ٣ / ٢١٧ .

(٥) أغانى ٣ / ٢١٨ .

(٦) أغانى ٣ / ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٧) أغانى ٣ / ١٩٢ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويسارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة ، ويجعلها فى مديحه[١] ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة ، وخاصة سلم[٢] بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة[٣] بن سلم الهُنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضى بشار فى غزله الفاجر ، وكان كل شىء فيه ينفِّر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشَّاهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يُقْبِلن عليه ويتغنين فى شعره . وفى هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوفَّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدَّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوِّفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرَّع بذكره للمهدى متلطفاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدَّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبداً وقينة وخلع عليه خِلَعاً كثيرة[٤] ، وجعله من سُمَّاره ومن يحضرون مجالسه[٥] . وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفَّ عن ذلك ، وكفَّ بشار على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله[٦] :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ –١٥٨ .
(٢) أغانى ٣/١٩٠ والديوان ٢/٣٢٦– ٣٣٨ ، ٣/٢٠٣ .
(٣) أغانى ٣/١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٩ والديوان ١/١٠٧ ، ١٤٠ ، ٢/٢١٩ .
(٤) أغانى ٣/٢١٣ .
(٥) ابن المعتز ص ٢١ وما بعدها .
(٦) أغانى ٣/٢٣٩ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

يا منظَرًا حسناً رأيتُه من وجه جاريةٍ فديتُه
بعثتْ إلىَّ تَسُومنى بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
والله ربِّ محمَّـدٍ ما إن غدرتُ ولا نويتُه
أمسكتُ عنك وربما عرض البلاءُ وما ابتغيته
إن الخليفة قد أَبَى وإذا أَبى شيئاً أبيتُه
ونهانىَ الملك الهما مُ عن النَّسِيب وماعصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرَق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلون على الزندقة[١] ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا[٢] ويَقْدُم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثَّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به فى البَطيحة ، ويجىء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار فى أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرد له أنه كان له امرأة تسمَّى أمامة[٣] ، وهو يُكْثِر فى أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يضاعفوا له الجائزة[٤] ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا[٥] ، واختطف منه بنتاً صغيرة[٦] . ومر بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى رَبابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول[٧] :

وغادةٍ سوداءَ بَرَّاقَةٍ كالماء فى طيبٍ وفى لينِ

---

(١) أغانى ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمالى المرتضى ٢/١٣٣ .
(٢) أغانى ٣/٢٤٣ .
(٣) أغانى ١٤/٣٦٥ .
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ١/٢٥٦ .
(٦) أغانى ٣/٢٢٩ .
(٧) أغانى ٣/١٩٣ .

كأنها صِيغتْ لمن نالها من عَنْبَرٍ بالمسك معجونِ

ولعلها السندية العَجْماء التى لم يتبع جنازته سواها[١] . وذكر فى غزله كثيرات من القيان والجوارى ، وفُتن فتونا بعَبْدة ، وقد أفرد صاحب الأغانى لأخباره معها فصلاً خاصًّا [٢].

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ، فقد كان فارسى الأصل ، وورث عن الفرس حدة فى المزاج ، ونشأ قِنًّا ابن قِنّ ، وولد أعمى لا يُبْصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها فى نفسه فقرأسرته وتخلفها فى المجتمع . وقد رُبِّىَ فى مهد عربى ، فأتقن العربية وتمثَّل سليقتها بكل مقوِّماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من ريب فى أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية . وكان ذلك كله سببًا فى أن يحدث تشويش فى فكره وأن تمتلىء نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقًا يبغض الدين الحنيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوَّل شعوبيًّا يبغض العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف ، فاختلط بهن ، وتغزل فيهن غزلا حسيًّا ، وربما دفعه فقد بصره إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتى ليصبح غزله ، فى بعض جوانبه ضربا من صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت فى طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ، ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة تُرَدُّ إلى أنه استطاع أن ينهج لهم فى قوة السبيلَ التى ترسَّمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهى سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشته الحضارية . وبذلك ازدهر الماضى فى الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ

(١) أغانى ٣/٢٤٨ .

(٢) أغانى ٦/٢٤٢ وما بعدها .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه — مهما لانت ورقّت — مطبوعة بطوابع النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التى تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقاً حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلقه بحسٍّ متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائماً بين الشعر العباسى والشعر القديم .

وعجيبٌ حقاً أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بيّناً على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التى يظل فيها الماضى الفنى ماثلا ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات فى الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا فى العروبة والدين وما من شك فى أن بشاراً كان ملحداً زنديقاً يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطُرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثّل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقا فى تمثله حجب الزمان والمكان مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضى والحاضر ، يتلقّى الماضى ويحياه ، وأيضاً يتلقّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضى برقيه العقلى وحياته الحضارية وصلا خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه جميع شعراء عصره إلا نفراً قليلا ، إذ مثّل الشعر القديم أمامهم كالأم الغاذية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوّم به عمله ، حتى إذا مرّن عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهى موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يحظى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظاً من هذه الموازنة ، ومما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطوّر فى أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته[١] : (يا طلل الحىّ بذات الصَّمْد) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب[٢] .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشِّيَم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحيهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشارا يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى[٣] ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولا بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعياً لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطللية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحىّ بذات الصَّمْد » . وحرى بنا أن نقف

---

(١) الديوان ٢/٢١٩ والأغانى ٣/١٧٤ وراجع فى أراجيز له أخرى الديوان ١/١٣٤ ، ١/١٤٠ .

(٢) الأغانى ٣/١٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣/٣٢١ ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ، ٢/٢٩٧ .

قليلا عند قصيدته البائية التى مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفى رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهى تلك التى يستهلها بقوله :

جفا ودَّه فازورَّ أو ملَّ صاحبُهْ وأزْرَى به أنْ لايزالُ يُعاتِبُهْ

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرَى الليل على بعيره وسط الفيافى المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتنه وما مرَّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التى أوقدت العطش فى صدور الأتن وحمارها ، فإذا هى تطلب الماء تريد أن تشفى غلّتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضى إلى مديح يزيد فيوغل فى فخر شديد بقيس قبيلته التى كان لها ولاؤه ، ويطيل فى وصف بلائها فى حروب مروان بن محمد وقَمْع الثائرين عليه . وبشار فى كل ذلك ينزع منزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرهم فيفخرون بمآثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل فى نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة فى نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول[1] :

إذا كنتَ فى كل الأُمورِ معاتباً صديقَك لم تلق الذى لاتعاتبهْ
فعِشْ واحداً أوصِلْ أخاك فإنه مقارفُ ذَنْبٍ مرةً ومجانبُهْ [2]
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَذَى ظمئتَ وأىُّ الناس تَصْفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيّاً ، حتى إذا انتهى منه فخرَ بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجَبَّارُ صعَّر خدَّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه [3]

---

(١) أغانى ٣/١٩٧ وانظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .
(٢) مقارف : مرتكب .
(٣) صعر خده : تكبر وعتا وبغى .

وكنا إذا دبَّ العدوُّ لسُخطنا ... وراقَبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُهْ[١]

ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَّفٍ ... وأبيضَ تَسْتسقى الدِّماءَ مضاربُه[٢]

وجيشٍ كجُنْح الليل يزحف بالحَصَى ... وبالشَّوْك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثَعالِبُه[٣]

غدونا له والشمسُ فى خِدْر أُمِّها ... تطالعنا والظِّلُّ لم يَجْرِ ذائبه

بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتدرك من نجَّى الفرارُ مثالبه[٤]

كأَن مُثَارَ النَّقْع فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه[٥]

بعثنا لهم موتَ الفُجاءَة إننا ... بنو المُلْك خفَّاقٌ علينا سبائبُهْ[٦]

والفخر بالبلاء فى الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معانى هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدَّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يُعَدُّ من مميزات الطبع العربى الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع فى التصوير ، ويُرْوَى أن الأصمعى وقف متعجبًا إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله »[٧] . وكان يعتمد فى ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالا فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعينًا بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع فى تأليفها . على أن من يمعن النظر فى تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثل الدقائق التى لا تُرَى إلا بحاسّة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

---

(١) دب : مشى فى استخفاء .

(٢) المثقف : الرمح المقوم . الأبيض : السيف .

(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطى : الرمح . ثعالبه : أطرافه .

(٤) مثالبه : معايبه .

(٥) النقع : غبار الحرب .

(٦) سبائبه : أعلامه ورياياته .

(٧) أغانى ٣/١٤٢ .

المقدمات الطللية مكتفياً بالغزل . ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد — كما أسلفنا — فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولا على مشيئته . وكان قد وصف السفينة فى إحدى[١] مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً فى بعض مدائحه[٢] للمهدى ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر[٣] :

إذا جئتَه للحَمْد أشرقَ وَجْهُـــهُ ... إليك وأعطاك الكرامةَ بالحَمْدِ
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تُراثه ... إذا ما غدا أوراحَ كالجَزْر والمَدِّ[٤]

وقوله فى عمر بن العلاء قائد المهدى الذى قضى على ثورة الخرّمية بجرجان[٥]

فَتًى لا ينام على دِمْنَةٍ ... ولا يَشْرب الماءَ إلا بِدمْ
يَلَذُّ العطاء وسفكَ الدِّماء ... وَيغْدُو على نِعَمٍ أو نِقمْ

ويقرن دائماً فى مديحه للقواد والولاة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهماً لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله فى مديح عقبة بن سلم والى البصرة[٦] :

إنما لَذَّةُ الجواد بنِ سَلْم ... فى عطاءٍ ومَرْكَبٍ للقاءِ
كخَراج السماء سَيْبُ يديهِ ... لقريبٍ ونازح الدار نائى[٧]
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ... ف ولكنْ يَلَذُّ طعم العطاء
يسقط الطيرُ حيث يَنْتثر الحـ ... ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء
لا يهاب الوَغَى ولا يعبدُ الما ... لَ ولكنْ يهينه للثناء

---

(١) الديوان ١/١٤٧ .
(٢) الديوان ٢/٢٨٣ ، ٣/٢٨٠ .
(٣) أغانى ٣/١٩٢ والديوان ٣/١٢٥ .
(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .
(٥) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٧٧ .
(٦) الديوان ١/١١١ والأغانى ٣/١٨٩ .
(٧) خراج السماء : الغيث . السيب : العطاء .

أرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمْطِرُ النَّيْـ لَ وأخرى سُمٌّ على الأعداء [1]

وواضح أنه يجعل لذته فى الكرم والشجاعة ،ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذى لا مفر من سقوطه على القريبين والنائين . ويجرّد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطى خوفاً من هجاء ولا رجاء فى مديح ، وإنما يعطى لأنه يجد لذة فى العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابه بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت ،وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مرسلا نَدَاه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح فى هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعانى عارضاً لها فى وجوه شتّى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعيناً بالمقابلة والطباق وببعض الحكم كما فى البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة [2] .

ولم تُؤْثَرْ لبشار مراث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمساً فى اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزًّا حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول [3] :

أُصِيبَ بُنَيٌّ حين أورق غُصْنُهُ وألْقى علىَّ الهمَّ كلُّ قريبِ
وكان كرَيْحان العَروس تخالُهُ ذَوَى بعد إشراق الغصون وطِيبِ
وما نحن إلا كالخليط الذى مضَى فرائسُ دهر مخطىءٍ ومصيبِ
نؤمِّل عيشاً فى حياةٍ ذميمــــة أضرَّتْ بأبدانٍ لنا وقلوبِ

ونراه يحزن حزناً عميقاً على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدى فتكاً ذريعاً ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره ، وقد مرت فى الفصل السابق قطعة يرثى بها صديقاً منهم ، وكأنه يرثيهم جميعاً وقد ندبه بها أحرَّ ندب وأشجاه . وروى له أبو الفرج ميمية رثَى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا ،ولا نشك

---

(١) أريحى : كريم يهتز للندى . النيل : العطاء .

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢٥٤ والأغانى ٣/١٦١

فى أنهم جميعًا قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعا أشد الجزع ، مُلْتاعًا أشدّ الالتياع على شاكلة قوله[١] :

كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا ... والأخلاَّءُ فى المقابر هامُ[٢]
نَفِسَتْهم علىَّ أمُّ المنايا ... فأنامتْهمُ بعنفٍ فناموا
لا يَغيض انسجامُ عينى عليهم ... إنما غاية الحزين السِّجامُ[٣]

والرثاء عنده — على كل حال فن طارىء ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخراً هاجياً ، مستلهماً ما شاع فى بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن كان حولهما من الشعراء . وحاول أن يدخل فى معاركهما ، وهو لا يزال غَضّ العود ، فهجا جريراً مؤملا أن يردّ عليه فيطير اسمه فى الناس ، ولكن جريراً لم يحفل به لأنه كان لا يزال فتى ناشئًا ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ، فقد أخذ يصول ويجول فى هجاء الناس ، ودخل فى الخصومات القبلية بين عشيرته من بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ، ولكنه ازداد شرًّا وإيذاء ، كما مر بنا فى صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشارًا يسرف فى هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد أن يشتهر فى هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوى كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقده لبصره ، وهى مرارة زادها اضطراماً فى نفسه أنه كان مولى ، والموالى كانوا متخلفين فى المجتمع الأموى ، وكان فقيراً بائسًا ، فاندلع ينفّس بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما فى العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا الفخر فى نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ، وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان يتعصب لأصوله من قيس تعصبًا شديداً ، وكان بشار يعيش فى كنفه ، فمضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

---

(١) أغانى ٣/٢٣٦ .
(٢) هام هنا : أموات .
(٣) يغيض : يجف . السجام : سيلان الدمع .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا فى قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله[١]:

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجابَ الشَّمسِ أو تُمْطِرَ الدَّما

إذا ما أَعَرْنا سَيِّدًا من قَبيلةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى علينا وسَلَّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسى ،عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد ، وإذا هويتحول شعوبيًّا مارقًا يتغنَّى بأمجاد قومه الحضارية كافراً بالعرب والعروبة ، وتصوِّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته[٢]:

هل من رسولٍ مخبرٍ عنى جميعَ العربِ

وهى صياح وضجيج بتصوير أبَّهة الملك الفارسى وأيضًا الملك الروحى ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفًا هتافًا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة .

واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذى سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الوَعْلين على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق وهى معارك كانت تُسْتَخْدَمُ فيها غالبًا مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهامًا مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التى كانا يغمسانها فيها ،فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة. ومما نسوقه من ذلك قول بشار فى أم حماد[٣]

إذا سُئِلَتْ لم تكن كَزَّةً ولكنْ تذوب ولا تَجْمُدُ

ووراء هذا البيت فى القصيدة أبيات يصرح فيها بفُجْرها وغوايتها تصريحًا تتقزَّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتفنن فى الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظم فى هذا الفن قديمًا من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادى عند عمر بن

(١) أغانى ٣/١٦٢ .
(٢) الديوان ١/٣٧٧ وانظر ٣/٢٢٩ .
(٣) الديوان ٣/١٢٣ .

أبي ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العُذْرى عند جميل وأمثاله من النجديين والنازلين ببوادى الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفّس فيها ، ونراه أحيانًا يقترب اقترابًا شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله[١]:

لعَبْدَةَ دارٌ ما تكلِّمنا الدَّارُ تلوح مغانيها كما لاح أسْطارُ[٢]
أُسائلُ أحجارًا ونُؤْياً مهدَّماً وكيف يجيب القولَ نُؤْىٌ وأحجارُ[٣]
وما كلَّمتْنى دارُها إذ سأَلتُها وفى كبدى، كالنَّفْط شُبَّت به النَّارُ
وعند مَغانى دارها لو تكلَّمتْ لمكتئبٍ بادِى الصبابة أخبارُ

ويقترب أيضًا حين يستغل عناصر النسيب والغزل القديم وما يجرى فيه من وصف لوعة الحب والسهاد الطويل ، وما صوّر عشاق العرب من إذعانهم لمعشوقاتهم وما يسكبن فى قلوبهم من سحر وفتنة، وما يبعث نسيمُ الصبا الحلو المار بديارهن فى أنفسهم من بَرْد وأمن وغبطة وما ينصبون حولهن من شباك التضرع والتذلل والاستعطاف ، حتى ليخيّلون إليهن أنهم قتلى حبهن وسهام عيونهن ، يقول من قصيدة فى معشوقته عَبْـــدة[٤]:

أَبِيتُ أَرْمَدَ ما لم أكتحِلْ بكمُ وفى اكتحالى بكم شافٍ من الرَّمَدِ
رَقَّتْ لكم كبدى حتى لو انكمُ تهوون أن لا أُريد العيش لم أُرِدِ
كأن قلبى إذا ذكراكمُ عَرضتْ من سحرهاروتَ أو ماروتَ فى عُقَدِ[٥]
ما هَبَّت الريحُ من تلْقاء أرضكمُ إلا وجدتُ لها بَرْدًا على كَبدِى
يرقُّ قَلْبِى وتزدادين لى غِلَظاً ما ذاك فيما أُرَجِّى منك بالسَّدَدِ[٦]
تحرَّجى بالهوى إن كنتِ مومنةً بالله أن تقتلى نَفْساً بلا قَوَدِ[٧]

(١) أغانى ٦/٢٤٦ .
(٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار : جمع سطر ، يشبه المغانى بسطور الكتابة .
(٣) النؤى : حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار.
(٤) انظر الديوان ٢/٢١٥ والمختار من شعر بشار ص ٨٢ .
(٥) العقد : ماينفثه الساحر بزمزمته لغرض السحر .
(٦) السدد : السداد والصواب .
(٧) القود : القصاص .

وقد رققت الحضارة حسَّه وفتحت له فى الغزل أبوابًا من المعانى والصور التى تنمّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادى وشعور رقيق حاد ، ومما يمثل ذلك عنده من بعض الوجوه قوله (١) :

يالَيلَى تزداد نُكْرَا من حُبِّ مَنْ أحببتُ بِكْرَا
حَوْراءُ إن نظرتْ إليْ ك سَقَتْكَ بالعينين خَمْرَا
وكأنَّ رَجْعَ حديثها قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهرا
وكأن تحت لسانها هاروتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جمعتْ علي ه ثيابَها ذهباً وعِطْرا
وكأنها بَرْدُ الشرا ب صَفًا ووافق منك فِطْرَا
جِنّيَّةٌ إنْسِيَّةٌ أو بين ذاك أجلُّ أمرا

وواضح فى هذه القطعة أثر فقده لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحسّ ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ،ويصور جسدها ذهبا وعطرا ، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائمًا يتحرق عطشا . وقلما ارتفع فى غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوَّه بذلك كثيراً فى شعره ، محاولا أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثَمّ مضى يردد فى أشعاره أن السمع يحلّ محل العين فى تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله (٢) :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحَىِّ عاشقةٌ والأُذْن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تَهْذِى؟فقلت لهم الأُذْن كالعين تُوفِى القلب ما كانا

وكان لذلك أثر عميق فى غزله إذ طبعه بطوابع الحس ، وليس ذلك فحسب ، فقد أماله بشار — كما أسلفنا — نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرّج ولا يرعى ديناً ولا خلقاً ،

(١) أغانى ١٥٥/٣ . (٢) أغانى ٢٣٨/٣ .

حتى ليصور جانبه الحيوانى الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً [١]، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله [٢]:

فبِتْنا معاً لا يَخْلُصُ الماءُ بيننا إلى الصبح دونى حاجبٌ وستورُ

وقد مضى يحضّ حضًّا صريحًا على الإثم ويغرى الناس بفتنة الجسد، وكأنما لم يعد بجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت فى رأيه أداة للغريزة الجنسية ،أداة طيعة تنال مهما تأبَّت واستعصت ، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلغ الرجل منها ما يريد ، يقول [٣]:

لا يُؤْيسنَّك من مخبَّأةٍ قولٌ تغلِّظه وإن جَرحا
عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصعبُ يمكن بعد ماجمحا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلة ، ويغرى باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عُرْفهم وألسنتهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطْوَى فيه من لذة وإثم ، يقول [٤] :

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ما فى التلاقى ولا فى قُبْلةٍ حَرَجُ
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيِّبات الفاتك اللَّهِجُ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به فى وعظهم وكلامهم ، ولم يَرْعَوِ فرفعوا أمره إلى السلطان ،وتدخل المهدى ونهاه فانتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هيأ لذلك تعلُّق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمهن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس فى اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه المجان من حوله فى البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

(١) أغانى ٣/١٨٣ وما بعدها .
(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .
(٣) أغانى ٣/٢٠٩ .
(٤) أغانى ٣/٢٠٠ .

فى طليعة من روَّجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنَّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب[١] ، وقد تغنى طويلا بالخمر وكئوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقاتها من مثل قوله[٢]:

ربَّ كأْسٍ كالسَّلْسبيل تعلَّلْـ ... ـتُ بها والعيون عنى نيامُ
حُبِسَتْ للشُّراة فى بيت رأْسٍ ... عُتِّقَتْ عانساً عليها الخِتام[٣]
نَفَحَتْ نَفْحةً فهزَّتْ نديمى ... بنسيمٍ وانشقَّ عنها الزُّكام
وكأنَّ المعلولَ منها إذارا ... ح شَجٍ فى لسانه بِرْسام[٤]
صدَمتْه الشَّمولُ حتى بعينيْـ ... ـه انكسارٌ وفى المفاصل خام[٥]
وهْو باقى الأطراف حَيَّتْ به الكأْ ... س وماتتْ أوْصاله والكلام[٦]

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذى يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى فى الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور فى العيون وارتخاء فى المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل فى وصفه للخمر بتراثها القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونُظَرائه ، فى الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكى يزيدوا فى الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الحصبة وما عاش فيه من حضارة مادية حفَّ بها المجون . وقد حاول ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أن يجدد فى شكل القصيدة ، فنظم فى الرباعيات وفى المزدوج والمسمطات ، غير أنه ظل محتفظًا للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقّ ويلين ، ولكن دون

(١) أغانى ٣/١٦٥ .
(٢) أغانى ٣/٢٣٥ .
(٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر بالكروم والخمر .
(٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو يريد الهذيان نفسه .
(٥) الشمول : الخمر . خام هنا : ارتخاء ، وأصله طاقات الزرع الغضة .
(٦) حيت : حييت .

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهًا دقيقًا وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

٢

أبو نواس[1]

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعًا كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عامًّا بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوَّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضًا ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨ / ٢ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبّا ص٩٩ وشذرات الذهب ١ / ٣٤٥ ومرآة الجنان ١ / ٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدقى وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هانىء » للمقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة[١] . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى[٢] والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة[٣] ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧—١٣١ هـ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلّبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدة أولاد[٤] ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة[٥] ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا[٦] ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات[٧] :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر[٨] وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه[٩] ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣ .
(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبوهفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .
(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .
(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .
(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبوهفان ص ١٠٩ .
(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٨٧ وأبوهفان ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـا حُبٌّ كأطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢] ، فارتحل معه ، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير ، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرد ، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره . وثاب قليلا إلى رشده ، فخرج إلى بادية بنى أسد ، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣]، وعاد ، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه ، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤] ، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً ، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أوْدَى جِماعُ العلم إذ أوْدَى خَلَفْ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: « كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه »[٦] . وطلب أيضاً علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين ، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره ، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧] . وقد وصله هذا العلم

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها .
(٣) ابن منظور ص ١٢ .
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩ .
(٥) الديوان ص ١٣٣ .
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسى الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »[١] . وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم[٢] . وتفرّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئاً كثيراً[٣] ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً[٤] ، مما أعدّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكى ، فيقول: [٥]

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا ... لو قد نبذتُ به إليك لسرَّكا
إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى
أتتبَّع الظرفاء أكتب عنهمُ ... كيما أحدِّث من أُحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التى عاصرته ، فقد كانت تَزْدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء؛ جنان جارية الثقفيين ،وعقد أبو الفوج فصلا فى أغانيه[٦] لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسبِّها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتى ليقول[٧]:

أتانى عنك سَبُّكِ لى فسُبِّى ... أليس جرى بفيك اسمى فحَسْبى
وقُولى ما بدالكِ أن تقولى ... فما ذا كلُّه إلا لحُبِّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ١٨/٢ وما بعدها.
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكياً عليه ولا آسفاً ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول[١] .

أيا من كنت بالبَصْرة أصفى لهم الوُدّا
ومن كانوا مـوالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا!
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صَدّا
شربنا ماء بغدادٍ فأنسانا كم جِـدّا
فلا تَرْعوْا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدَّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملمًّا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثَّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذَّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر[٢] ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه[٣] ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من بِرّهم ونوالهم الغَمْر ،ونرا هيحزن عليهم حزناً عميقاًحين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله[٤] :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيبـاتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منـه فعاداهمُ لذاكا

ويولِّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسيًّا مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

---

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبو هفان ص ١٢١

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول[١] :

أنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ
النيلُ يُنْعش ماؤه مصرًا وندالك ينعش أهلَه الغَمْرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حنينًا شديداً إلى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوَّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله[٢] :

كنى حَزَناً أنى بفسطاط نازحٌ ولى نحو أكناف العراق حَنينُ

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوَّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديمًا له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلَّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبا بعيوبه تُقْرَأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسْقِنى خمرًا وقل لى هى الخَمْرُ ولا تَسْقنى سرًّا إذا أمكن الجَهْرُ
وبُحْ باسْم من تَهْوَى ودَعْنى من الكُنَى فلا خَيْرَ فى اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون » . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعًا فيها روحه الفكهة بما يُصَوِّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبح فى ذراعه وللمصحف فى لَبَّته .[٣] وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

---

(١) الديوان ص ١٠٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٨ .

حريته[١] . وكانت قد تقدمت به السنّ وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنيب إلى ربه ، وينظم أبياتًا مختلفة فى الزهد ، وفى أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيّه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به فى السجن ، إذ يقال إنه حجّ سنة ١٩٠ للهجرة[٢] ، وكأنما هى صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفى من بعده ، وقد اختلف الرواة فى تاريخ وفاته[٣] ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفى ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضًا فى سبب وفاته[٤] ، فقيل إنه توفّى وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فدسّ له شربة من سَمّ قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دسّ له مَنْ ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت فى تكوين طبيعة أبى نواس ، فقد كان فارسيًّا حاد المزاج وثقف كل الثقافات التى عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق فى حضارة عصره المادية وفى آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المجون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردّى فى أسْوأ صور المجون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحيانًا يعلن تمرداً وإلحاداً فى الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقًا ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة إنما كان يعتنق المجون ، ويتعبد لملاذّ الحضارة التى عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقًا عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

---

(١) زهر الآداب ٢/١١١ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبوهفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/١٥٦ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء ص ٧٨٣ .

(٤) أبوهفان ص ٣٤ .

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور[١] وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل السابق وحواره للنظام فى فكرة العفو التى قال بها المرجئة[٢] .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً فى مزاجه هو عنصر التنديد والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذى جرَّه إلى صياح كثير فى وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوَّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَزَا بى المجون حتى أتناول العظائم»[٣] وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه فى أثناء معاقرته للخمر هزلا وتعابثا ومجانة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته فى خمرياته ، إذ نراه فى ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونَعْت رحلته فى الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره فى الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس»[٤] وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلى والإسلامى وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو فى اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط فى التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد فى معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك فى الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك فى الاتجاه الثانى أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه . أما المديح

---

(١) أبو هفان ص ٣٧ .
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .
(٣) أبو هفان ص ٣٨ .
(٤) تاريخ بغداد ٤٣٧/٧ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله فى ذلك قلائد بديعة مثل رائيته فى الخصيب[١] :

أجارة بَيْتينا أبوكِ غَيورُ ... وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

وميميته فى الأمين[٢]:

يا دارُ ما فعلتْ بك الأيَّامُ ... لم تُبْقِ فيكِ بشاشةً تُسْتامُ[٣]

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد[٤]:

وأخفتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى إنه ... لتخافكَ النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقوله أيضًا فيه[٥]:

ملكٌ تصوَّر فى القلوب مثالُهُ ... فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وقوله فى الأمين مخاطبًا ناقته[٦]:

يا ناقُ لا تَسْأَمى أوتبلغى ملكا ... تقبيلُ راحته والرُّكْنِ ميَّانِ

محمدٌ خير من يَمْشِى على قَدَمٍ ... مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنْس ومن جانِ

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردَّى فيه من لهو ومجون ، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادًّا ردًّا عنيفًا على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله فى بعض ممدوحيه[٧] :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِه ... فعَيْنى ترى دَهْرى وليس يرانى

فلو تُسْأَل الأيامُ ما اسمى لمادرتْ ... وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وجانب آخر فى بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

---

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التى تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائحه على شاكلة سينيته فى الأمين وفيها يقول[١]:

أضحى الإمام محمدٌ للدين نورًا يُقْتَبَسْ
تبكى البدورُ لضِحْكهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسْ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفّها فى النطق وأحلاها فى السمع، وكان يدنو فى ذلك حتى يمس شغاف القلوب، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية. ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء، حتى فى المديح، أو قل فى كثير منه، فإنه كان يبتغى فيه أو على الأقل فى بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة.

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكًا بالقوالب القديمة، وقد سبقه، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، أبو نُخَيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشَّمَرْدَل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب. وقَرَن بهذه المحاكاة الشديدة ضروباً من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[٢]:

لما تبدَّى الصُّبْح من حجابهِ كطلعة الأَشْمَط من جلبابهِ[٣]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ كالحبشىِّ افترَّ عن أنيابه
هِجْنا بكلب طالما هِجْنا بهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلَّابه[٤]
كأَن مَتْنَيه لدى انْسِرابهِ مَتْنا شجاعٍ لَجَّ فى انسيابه[٥]

---

(١) ابن المعتز ص ٢١١.
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٢/٤٠.
(٣) الأشمط: الذى يخالط سواد شعره بياض الشيب.
(٤) ينتسف: ينتزع بقوة.
(٥) انسرابه: انسيابه وإسراعه. الشجاع هنا: الأفعى، متناه: مكتنف صلبه.

كأنما الأظفورُ فى قِنابهِ مُوسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابهِ[١]
كأن نَسْرًا ما توكَّلْنا بهِ يعفو على ما جَرَّ من ثيابهِ[٢]
ترى سَوام الوحش يُحْتَوى بِه يَرُحْنَ أَسْرَى ظُفْرِه ونابه[٣]

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدُّ ركنا هامًّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض بالاوعة والحزن العميق من مثل قوله[٤] :

طوى الموْتُ ما بينى وبين محمَّدٍ وليس لما تَطْوى المنِيَّةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها أَحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرَ ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شىءٌ عليه أحاذر
لئن عَمرتْ دورٌ بمن لا أَوَدُّهُ لقد عَمرتْ ممن أُحبُّ المقابرُ

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع[٥] .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يجدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين[٦] وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

---

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه . صناع : ماهر . نصابه : قرابه ومقبضه .
(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعفو : يمحو .
(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفيافى .
(٤) الديوان ص ١٢٩ .
(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .
(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التى عرفها فى نقائضهما والتى طالما سمعها من أبى عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجرى فيه فى نفس الدروب التى مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التى كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته — إن صح هذا التعبير — من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[1] :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أسألُ عن خمَّارة البلدِ[2]
يبكى على طَلل الماضين من أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى من بنو أسدِ؟
كم بين ناعتِ خمرٍ فى دَساكرِها ... وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتضَدِ[3]
دَعْ ذا ، عَدِمتك ، واشربْها معتَّقَةً ... صفراءَ تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك — كما ذهب بعض المعاصرين[4] — شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء وممن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله[5] :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـيِ إذا ما انشقَّ يُرْفَا
عجبًا من أثر الصَّنْـ ... ـعَةِ فيه كيف يخفى

---

(١) الديوان ص ٢٦٦ .
(٢) عاج : عطف .
(٣) الدساكر : جمع دسكرة وهى القرية العظيمة . النؤى : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ، منتضد : مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .
(٤) حديث الأربعاء (طبعة سنة ١٩٣٧) ص ١١٣ — ١١٤ .
(٥) الديوان ص ١٧٢ .

إن رقّاءك هذا ألطفُ الأُمــة كَفًّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبَخَسَه جائزته [١] ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يجشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستعفى منه ، وتخلَّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة [٢] ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام [٣] ، وكان من أشد ماهجاه به على نفسه نعته له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول فى إحدى أهاجيه مصورا ثقله [٤] :

فيك ما يَحْمل الملوكَ على الخُرْ قِ ويُزْرِى بالسيد الجَحْجاحِ [٥]
فيك تِيهٌ وفيك عُجْبٌ شَديدٌ وطِماحٌ يفوق كلَّ طِمـاحِ
باردُ الظَّرف مظلم الكذْب تيَّا هُ مُعيد الحديث غَثُّ المزاحِ

وكانت هذه الأبيات سبباً فى سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْد لا يلقاه ولا يُذْكر له إلا بجلّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعًا ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول [٦] :

واللهِ لو كنتُ جريرًا لمــا كنت بأَهْجَى لك من أَصْلكا

وله أهاج كثيرة فى القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائمًا يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضى إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبى نواس غزل كثير فى المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل فى المرأة ما نظمه فى جنان ، إذ يعبِّر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .
(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .
(٥) الخرق : الحمق . الجحجاح : الجواد
(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردُّه ردًّا منكراً عنيفًا ، وهو كلما ردّته ازداد بها غرامًا وعليها تهالكاً ، وكلف بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب فى بعض المآتم[١] :

يا قمرًا أبصرتُ فى مأتمٍ ... يَنْدب شَجْوًا بين أترابِ
أبرزه المأتَمُ لى كارها ... برغم دايات وحُجَّاب
يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ[٢]
لا تَبْكِ مَيْتًا حلَّ فى حُفْرَةٍ ... وابْكِ قتيلا لك بالباب
لا زال موتاً دَأبُ أحبابه ... وكان أنْ أبْصره دابى[٣]

وعبثا استطاع يومًا أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقًّا بحبها وناره المحرقة ، ويتعذب عذابًا طويلا ، بثَّه فى كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التى استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شىء من أمره . ونراه فى بغداد يسوق غزلا كثيراً فى إمائها وجواريها ، يشوبه بكثير من الفحش الذى ينبو عنه الذوق ، حتى مع عنان جارية الناطفى ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم الشعر ، ممعنة معهم فى كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعابثة[٤] . وديوانه من هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائى كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ، وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عَرَفْنَ شيئًا من العفة والطهارة .

ويتسع الفحش فى غزل أبى نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة فى جبين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستَّر بذلك عن فسقه الحقيقى بالجوارى الخليعات[٥] . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسَّر نفسية أبى نواس على أساس هذه الآفة الشاذة التى كان يتظاهر بها ليخفى حقيقة سريرته وحياته الماجنة . وينبغى أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه فى حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً من غزله المفحش فى الغلمان والنساء جميعًا كان ينظمه فى مجالس الخمر تعابثًا

(١) أغانى ٦/١٨ والديوان ص ٣٦١ .
(٢) استعار الدر للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب لأطراف الأصابع .
(٣) الدأب : الشأن والعادة .
(٤) العقد الفريد ٦/٥٧ .
(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع فى ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله[١]:

يا مَنْ له فى عَيْنه عَقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعةٌ بالسَّعْد ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى غير مدافَع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنَّى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شىء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان فى البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الخمرية تتكامل صورتها وتُفْرَدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنًّا مستقلا ، له وحدته الموضوعية ، مستعينًا فى ذلك بملكاته العقلية الخصبة التى أمدته بكثير من المعانى الدقيقة ومستعيناً أيضًا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التى رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحيانًا فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كئوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدى سقاتها بين آلات الطرب ورنَّات القيان ، يقول[٢]:

إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدامُ
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا سلام

فلا حياة فى رأيه سوى حياة الخمر والمجون فى بيوت القيان وفى الحانات ، ومن ثَمَّ مضى يدعو فى خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك فى قوله[٣]:

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربْ إلى هِنْدِ واشْرَبْ على الورد من حمراء كالوردِ
كأْساً إذا انحدرتْ فى حَلْق شاربها أَجْدَتْه حُمْرَتَها فى العين والخَدِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ .
(٢) العقد الفريد ٦/٢٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأْسُ لؤلؤةٌ في كفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها خمرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ

وأخذ يجدِّف كثيراً ضد الدين الحنيف الذى يحرم الخمر وجملة الآثام التى كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلاناً صريحاً بمثل قوله[١] :

ترى عندنا ما يُسْخط الله كلَّه من العمل المُرْدِى الفتى ماعدا الشِّرْكا

وقد يتمادى فى ذلك حتى ليعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة ولا نار ، وهو فى ذلك كله إنما يتماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرته الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان والراهبات ، وقد يلمُّ بحانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه الناحية ملىء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفى خمرياته فحش كثير ، وكأنما وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياه . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر فى هذا الباب ، إذ تحول إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل فى قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا هو توضع فى فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان فى كتابه « أخبار أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار المجّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعَرف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيقَ النفس من حَكَم » تُنْسَبُ إليه وهى لوالبة[٢] ، ويقول أبو الفرج فى ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر نادر فى الخمر نسبه الناس إلى أبى نواس »[٣] ويقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون »[٤] ولم تقف المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضًا لم تقف عند شعر الخمر والمجون

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .
(٣) أغانى ١٤٦/٧ .
(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه فى جميع الموضوعات، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة النظام فى ابن المعتز ، فسنراه ينشد له فى الخمر بيتين وردا فى ديوان أبى نواس[١]، وينشد له قطعة فى مديح الأمين جاءت أيضًا فى ديوان أبى نواس[٢]، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالى المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية فى الغزل إلى النظام وهى مبثوثة فى الديوان[٣] وكأن الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعانى وبعد فى الخيال والوهم . وكان حَمْلهم عليه لأشعار المجّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبى العتاهية[٤]

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حُمل عليه كثير فى هذا الباب ،ومن ثمّ ينبغى أن لا نتسع فى أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهانى ، فإنها تمتلىء بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتّخذ أساسا لدرسه وبحثه . وهو يعتدُّ فى كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرَّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضًا وراء ذلك كثيرا من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة »[٥] . وكان كثيراً ما يُدْخل ألفاظًا فارسية فى خمرياته بحكم شيوع الفارسية فى الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المجوس الذين كان يتغزل بهم ،ودفعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثّة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم . وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجرى فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سنُّ أبى نواس ووخطه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

---

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٨ والديوان ص ٤١٩ .
(٤) انظر الأغانى ٤/١١ ، ٢٩ ، ٧٠ والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

فى الحياة وعواقبها وفى البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة فى الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح من مثل قوله[1] :

يا طالبَ الدنيا ليجمعها جمحتْ بك الآمال فاقتصِدِ
والقَصْد أحسنُ ما عملتَ له فاسلكْ سبيل الخير واجتهد
واعملْ لدارٍ أنت جاعلُها دارَ المقامة آخرَ الأبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير فى الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلا حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياما آخر واوَجَد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقح مع الغلمان والجوارى . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه عُنِى فى بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفَّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

٣

أبو العتاهية[2]

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان فى « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطيًّا من موالى بنى عَنزة ، أما

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) راجع فى ذى العتاهية وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٤/١ وطبعة الساسى فى ترجمة والبة ١٦/١٤٢ وترجمة سلم الخاسر ٢١/٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ بغداد ٦/٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤ ومرآة الجنان ٢/٤٩ وشذرات الذهب ٢/٢٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٢٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٨ وزهر الآداب للحصرى ٢/٣٤ وما بعدها وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٦ م .

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابناه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم[1] . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شىء فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر[2]، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فماذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنَّثين ، وبذلك كُتب عليه أن يكون سيِّئ السيرة فى مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجِرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردَّى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته ، وكان نَبْع الشعر قد أخذ يتدفَّق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسَّر من الخزف وما يشترونه من الجِرار[3] .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجَّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو فى أثناء ذلك يُكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ والرواح إلى نوادى القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغنٍ ناشئ من النَّبَط دوَّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد[4] ، لعل بضاعتهما تروج فيها ، وفُتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدَّت فى وجه أبى العتاهية ، فصمَّم على العودة إلى الكوفة ، وعرَّج فى طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سُعْدى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفت قلبه حبًّا ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدَّى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقْذعًا ، فأنزل به

---

(١) أغانى ٤/٧ .
(٢) أغانى ٤/٧٥ وانظر المسعودى ٣/٣٦٠ .
(٣) أغانى ٤/٩ .
(٤) أغانى ٤/٤ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عنزة ، وكفّ أبو العتاهية لسانه[١] .

ويَمّم الكوفة غير أن مقامه لم يَطُلْ بها ، فإن إبراهيم الموصلى صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) وقرّبه مع من قرّب من المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحق به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ، وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزه[٢] ، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيراً عنده مقدّما له على كثير من الشعراء ، وحتّى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه[٣] . ويعظم شأن أبى العتاهية ويتهاداه كبار رجال الدولة ووجوهها وفى مقدمتهم خال المهدى يزيد بن منصور الحميرى وقائده وواليه على طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إنى أمنتُ من الزمان وريْبِهِ لما علقتُ من الأمير حِبالا

ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم[٤] .

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة ، غير أن سحابة لاتلبث أن تنعقد فى سمائها ، فقد تعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح ، وهى عُتْبَة ، وكانت تزدريه كما ازدرته سُعْدى من قبل ، ومضى لا يكفُّ عن غزله بها ولا يرعوى ، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه ، فحدّثت المهدى بشأنه ، فغضب لتعرضه لُحرمه وجوارى قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبّاً صادقاً إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا[٥] ، وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا ، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه[٦] .

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

---

(١) انظر القصة فى الأغانى ٤ / ٢٢ ومابعدها .

(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودى ٣ / ٢٤٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٨ .

(٣) أغانى ٤ / ٥٦ .

(٤) زهر الآداب ٢ / ٣٤ وانظر الأغانى ٤ / ٣٨ .

(٥) انظر فى قصته مع عتبة ابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٥ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٤ وما بعدها .

(٦) أغانى ٤ / ٢ .

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبى نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبُّ معهم من كئوس الخمر واللهو فى دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسى [١] وفى الأديرة من مثل دير أشمونى [٢] . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصليه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرِّض باعتزائه المزيف للعرب ، إذ كان ينسب نفسه فى بنى أسد [٣] :

أَوالبُ أنت فى العَربِ كمثل الشِّيصِ فى الرُّطَبِ
هلمَّ إلى الموالى الصِّيـ ـدِ فى سَعةٍ وفى رَحَبِ
فأَنت بنا لعمر الا ـه أشبه منك بالعرب

وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة كالهارب وخمل ذكره [٤] .

ويتوفَّى المهدى فيخلفه الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه فى كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ — ١٩٣ هـ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدى ، فاتصل ما انقطع فى مدة الهادى القصيرة ، وأصبح لا يفارقه فى سفر ولا حضر « وكان يُجْرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية » [٥] وكثيراً ما كانت تبلغ فى المرة الواحدة مائة ألف درهم [٦] . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن مزيد الشيبانى ، ويقال إنه أجازه فى إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم [٧] ويظهر أنه دقَّ أبواب البرامكة طويلا ، ولكنهم لم يفتحوها له ، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السُّلَمِىّ .

وظل يعيش للهو والقَصْف ، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرَّقَّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبْس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى مديحه الرائع له وإلى ما كان يضفيه عليه من بديع الثناء ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحبسه

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٨٨ .
(٢) الديارات للشابشتى ص ٣١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٦ / ١٤٢
والشيص : أردأ التمر .
(٤) أغانى ١٦ / ١٤٢ .
(٥) أغانى (دار الكتب) ٤ / ٦٣ .
(٦) أغانى ٤ / ٧٤ .
(٧) أغانى ٤ / ١٠٠ .

فى دار موسّعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قولـــه (١) :

إنما أنت رحمةٌ وسَلامَهْ زادك الله غبطةً وكرامَهْ
لو توجَّعتَ لى فروَّحتَ عنى روَّح الله عنك يوم القيامهْ

ويرقّ له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه فى هذا الزهد الذى طرأ عليه ، وردّته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حَمْدُوَيْه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنْزل به العقاب الصارم الذى كان يُنْزله بأمثاله ، لولا أن موّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين (٢) ، ويقال إن منصور بن عمّار هتف به فى بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار (٣). وهى ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة حقًّا ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش (٤) ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبى العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق فى هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولا بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفى كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله فى الحواس الأخرى (٥) ، وفى ذلك يقول أبو العتاهية (٦) :

لكل شِيءٍ معْدِنٌ وجَوْهَرُ وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبَرُ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .
(٢) أغانى ٤ /٧ .
(٣) أغانى ٤ /٣٤ .
(٤) طبرى ٦ /٤٣٣ .
(٥) انظر الحيوان ٤ /٤٤١ والشهرستانى ص ١٨٨ .
(٦) أغانى ٤ /٣٧ .

وكلُّ شيءٍ لا حِقٌ بجوهره أصغره متصلٌ بأكبره
الخير والشرُّ هما أزواج لذا نِتَاجٌ ولذا نتاجُ
لكل إنسانٍ طبيعتان خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدَّان
والخير والشر إذا ما عُدَّا بينهما بونٌ بعيد جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله[١]:

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفى كل شِيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحِدُ

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفى ذلك يقول أحمد بن حرب : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردُّ كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعًا[٢] » وهو يقصد بالجوهرين طبعًا النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع فى يدنا المفتاح لحل مشكلة أبى العتاهية ، فهو ليس مانويًّا ثَنَوِيًا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز[٣] وبعض معاصريه ، إنما هو مانوى من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موَّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا فى الفصل الثانى أن تعاليم مانى كانت مزيجًا من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا فى بعض شعره الزاهدَ الناسكَ فى صورة بوذا المشهورة إذ يقول[٤] :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرُّف رفْعَ الطِّين بالطين
إذا أردت شريفَ الناس كلِّهم فانظرْ إلى ملكٍ فى زِىِّ مسكين

---

(١) أغانى ٤/٣٥ .
(٢) أغانى ٤/٥ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .
(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

ومعروف أن بوذا — عند الهنود — كان ملكا أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح فى العالم عابداً ناسكاً . وخَصْلة عند أبى العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعته المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحا شُحًّا شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتُرْوَى فى شحه نوادر كثيرة[١] ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدانق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغى أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسْب غيره الذى عليه غُرْمه ومأثمه[٢]، فهو يحرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء. وفعلا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة[٣] سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقلة[٤] سنة ١٩١ . وحين يتوفَّى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله[٥]:

يا عمودَ الإسلام خير عَمودِ والذى صِيغ من حياء وجودِ
إن يوماً أراك فيهِ ليومٌ طلعتْ شَمْسه بِسَعْدِ السُّعودِ

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقلَّدَ المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم[٦] ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله[٧]:

لخَيْرُ إمامٍ قام من خير عُنْصُر وأفْضلُ راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ

ويقول الرواة إنه كان يجرى عليه فى كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يغدق عليه من جوائزه فى الحين بعد الحين[٨] . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً فى الظاهر ، أما فى الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلح فى الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك فى بعض أشعاره[٩]

---

(١) أغانى ٤/١٦ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤/٤٥٩ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى (طبع الساسى) ١٧/٤٦ .
(٥) أغانى (طبع الساسى) ٢١/١١ .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٨٩ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/١٣ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٥٣ .
(٩) أغانى (ساسى) ٢١/٧٦ وانظر أغانى (دار الكتب) ٤/٧٦ .

وهكذا ظلّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبى العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولا إلى أن يصبح مخنثًا ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُتْرية [١] ، ونؤمن — مع نيكلسون [٢] — بأنه لم يعش هذا المذهب حقًّا ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان [٣] ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونَقَل كثيراً من حكمها إلى أشعاره . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرْجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثَمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم [٤] ، ومرّ بنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس [٥] الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفًا ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضًا مثقفًا ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويبرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعًا .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الخمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الخمر

---

(١) أغانى ٤/٦ .
(٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون ص ٢٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/٢ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

مستبدلا بهما الزهد ونشر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبى نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير فى مدائحها على الأوضاع والتقاليد الموروثة فى الصياغة وفى التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحه إذ يتنحَّى عن الصحراء والأطلال إلا ما قد يأتى عرضاً ، وأيضًا فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثِّل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول[١] :

أَتَتْه الخلافةُ منقادةً إليه تُجَرِّرُ أذيالهـا
ولم تَكُ تَصْلُحُ إلا له ولم يَكُ يَصْلُحُ إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيرهُ لزُلْزِلَتِ الأَرضُ زلزالها
ولو لم تطعْهُ بناتُ القلوبِ لمـا قَبِلَ اللهُ أعمالها[٢]
وإن الخليفة من بُغْض لا إليه ليُبْغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة . وأكبر خليفة عُنِى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه فى سلمه وحربه وفى كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفى هذه التولية يقول[٣] :

وشدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عهودِ

وكان يحرص دائمًا على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعرضًا لوصف جيوشه وذَبِّه عن حمى الإسلام وما يُنْزل بأعدائه من موت يَمْحَقُهم مَحْقًا ، على شاكلة قوله[٤] :

وهرونُ ماءُ المُزْن يُشْفَى به الصَّدَى إذاما الصَّدِى بالرِّيق غَصَّتْ حناجِرُهْ[٥]
وأوسطُ بيتٍ فى قريشٍ لَبَيْتُهُ وأَوَّلُ عِزٍّ فى قريشٍ وآخره

(١) أغانى ٤/٣٣ .
(٢) بنات القلوب : النيات .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/١٥ .
(٥) المزن : السحاب الممطر . الصدى : بفتح الدال : العطش وبكسرها العطشان .

وزَحْفٍ له تحكى البروقَ سيوفُه وتحكى الرعودَ القاصفات حَوافره
إذا نُكب الإسلامُ يوما بِنَكْبَةٍ فهرونُ من بين البريَّة ثائرُهْ
ومن ذا يفوت الموتَ ، والموتُ مدركٌ كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ يُنافِرُهْ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعد فى جزالته ورصانته ، إذ كان يُعْنى باختيار ألفاظه من المعجم اليومى أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه ، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله[1]:

أنا اليومَ لى ، والحمد لله ، أَشْهُرُ يروح علىَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تذكَّرْ أمينَ الله حَقِّى وحُرْمتى وما كنت تُوليني لعلك تَذْكُرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلَّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سُعْدى النائحة ، وقد صوَّره فى بعض هذه الأشعار صورةً نَدِىَ لها وجهه طويلا ، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضًا من الرجولة ، حتى ليقول على لسانه[2] :

أنا فتاةُ الحَىِّ من واثلٍ فى الشَّرف الشامخ والنُّبْلِ
ما فى بنى شَيْبان أهلِ الحِجَى جاريةٌ واحدةٌ مِثْلى
قد نَقَّطت فى وجهها نَقْطَةً مخافةَ العَيْن من الكُحْل
إن زُرْتموها قال حُجَّابها نحن عن الزُّوَّارِ فى شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلْم الخاسر ، فما هو إلا أن قال فيه :

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

(١) أغانى ٤/٦٣ .
(٢) أغانى ٤/٢٢ .

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أنّ منه سلماً طويلا[١] . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحُجِبَ عنه ، فقال :

متى يظفرُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُك محجوبٌ ونصفك نائم

فسار بيته هذا فى الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف[٢] » وَجِلاً من أن يتمادى فى هجائه .

وبين أيدينا له مراث مختلفة ، لعل أحرّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فى الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله[٣]:

فَتًى لم يملَّ النَّدَى ساعةً على عُسْرِهِ كانَ أو يُسْرِهِ
أتتْه المنيَّةُ مغتالـةً رُوَيْدًا تَخلَّل من سِتْرِهِ
فخلَّى القصور لمن شادها وحلَّ من القبر فى قَعْرِهِ
وأصبح يُهْدَى إلى منزلٍ عميقٍ تُوُنِّق فى حَفْـرِهِ
أشدُّ الجماعة وَجْدًا بهِ أشدُّ الجماعة فى طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى ينعت مرقصٍ للخمر ونُدْمانها وساقيها ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة[٤] :

لهفى على الزَّمن القصِيرِ بين الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ[٥]
إذ نحن فى غُرَف الجنَا ن نعومُ فى بحر السُّرور
فى فتيةٍ مـلكوا عِنا ن الدهر أمثالِ الصقور

(١) أغانى ٤/٧٥ وطبعته الساسى ٢١/٧٦.
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٤ .
(٤) أغانى ٤/٦٠ .
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

ومُقَرْطَقٍ يمشى أما م القوم كالرَّشإِ الغَريرِ[١]
بزجاجةٍ تَسْتخرج السِّ رَّ الدفين من الضمير
زهراءَ مثل الكوكب الـ دُّرِّىِّ فى كفِّ المُدِير
ومخصَّرات زُرْنَنَـا بعد الهدوِّ من الخدورِ[٢]
يَرْفُلْنَ فى حُلَل المحا سنِ والمجاسدِ والحريرِ[٣]

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .

وقد مرَّ بنا تدلهه بعُتْبة ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ، وأكبر الظن أن رقته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَتْ فيه مشاعرهن ، وهى مشاعر تقترن عنده بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّى نحوكم سائلا ماذا تردُّون على السائلِ
إن لم تُنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدَلَ النائلِ
أو كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ وَيْلى فمنُّوه إلى قابلِ

ويقول ابن المعتز معلقًا على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته[٤] » . وعلى نفس هذا المثال قوله فى عُتْبة أيضا[٥] :

كأنها من حُسْنها دُرَّةٌ أخرجها اليَمُّ إلى السَّاحلِ
كأنَّ فى فِيها وفى طَرْفها سواحرًا أقبلْنَ من بابلِ
لم يُبْقِ منى حُبُّها ما خلا حُشَاشةً فى بدنٍ ناحلِ
يا مَنْ رأى قبلى قتيلاً بكى من شِدَّةِ الوَجْد على القاتلِ

---

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الخصور . الهدو من الليل : أوائله .

(٣) يرفلن : يتبخترن . المجاسد : القمصان الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغانى ٤/٤٥ .

ودائماً يشكو مسكنته وأن صاحبته لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه حريته ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذى يرسل الدموع مدراراً على من ظلمته ، وإنه ليستجير ولا مجير ويتصبر ولا صبر إلا النواح الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً فى حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً فى تراب ، يقول[١] :

لِدُوا للموت وابنوا للخَراب فكلُّكمُ يصير إلى تَبابِ[٢]

ويقول[٣] :

الناس فى غَفَلاتهم ورَحَى المنيَّـة تَطْحَنُ

ويقول[٤] :

كل حَىٍّ عند مِيتَتِهِ حظُّه من ماله الكَفَنُ

ويقول[٥] :

بين عَيْنَى كلِّ حَىٍّ عَلَمُ المـوت يلوحُ
نُحْ على نفسك يامِسْـ كين إن كنت تنوحُ

وهكذا يمضى ينعى الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رقدة الموت الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا راصدة ، والقدر أزلى ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن بالجبر والاضطرار[٦] ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا الأسى والكآبة ، وهى نظرة سوداء جاءته من مانويته ، إذ الإسلام لا يَنْعَى إلى

---

(١) الديوان ص ٢٣ .
(٢) تباب : هلاك .
(٣) الديوان ص ٢٦٧ .
(٤) الديوان ص ٢٥٢ .
(٥) أغانى ٤/١٠٣ .
(٦) أغانى ٤/٦ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم فى كروب أبى العتاهية التى تخنق الأنفاس والتى تجعله يقف طويلا عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبورِ نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجّلا أن ذوى السلطان يستوون مع السوقة فى الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول[١] :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إلماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله[٢] :

فلو أنا إذا مُتْنا تُرِكْنا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حىٍّ
ولكنا إذا مُتْنا بُعثنا ونُسْأَل بعده عن كل شَىٍّ

ويتسع أبو العتاهية فى أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملا ، وفعلا جمع منها ابن عبد البَرّ النَّمرى الأندلسى ديوانًا مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبى العتاهية باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده .

وأبو العتاهية فى زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو فى عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوى ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصرى ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجبًا للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردَّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب وإلى معانى بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد[٣] . وهو فى جوانب من مواعظه يلتقى بآى الذكر الحكيم فى اتخاذ العبرة من الأمم الداثرة والقرون الخالية

---

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ .
(٢) الديوان ص ٣٠٢ .
(٣) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها .

وفى تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله[١] :

يا عجبا كلُّنَا يَحيد عن الْـ حَيْنِ وكلٌّ لحَيْنه لا قِ
كأن حَيًّا قد قام نادبُه والتفَّت الساق منه بالساقِ[٢]
واستلَّ منه حياته مَلَك الْـ موتِ خَفيًّا وقيل : مَنْ راق[٣]

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قولـــه[٤] :

سبحان من لاشىء يحجبُ علمه فالسِّرُّ أجمع عنده إعـــلانُ
سبحان من هو لا يزال مُسَبَّحا أبدًا وليس لغيره السُّبْحان

وقوله[٥] :

إلهى لا تُعَذِّبْنى فإنِّى مُقِرٌّ بالذى قد كان منِّى
ومالى حِيلةٌ إلا رجائى لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّى

وبجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكما وأمثالا كثيرة مقتبسًا لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا ، ومما رُوِىَ عن حكماء العرب مثل لقمان[٦] ، وأفرد لها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — قصيدته « ذات الأمثال » التى يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفى أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد فى إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته[٧] ، وفى ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق فى نفوس الطبقة

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .
(٢) الشطر الثانى اقتباس من الآية رقم ٢٩ من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدها للحركة .
(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين ييأسون منه ويطلبون له الراقى أو الطبيب ، وإما الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب .
(٤) الديوان ص ٢٥٨ .
(٥) الديوان ص ٢٦٣ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .
(٧) أغانى ٤/١٠٢ وما بعدها .

العامة التى لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيماً ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ، وكأنما أحسّت عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . ونراه يتعمقه الشعور بما هى فيه من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول فى تضاعيفها[1] :

من مبلغٌ عنى الإما مَ نصائحًا متتاليَهْ
أنى أرى الأسعار أسْـ ـعارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَةً وأرى الضرورةَ فاشيه
مَنْ يُرْتَجى للناس غَيْـ ـرُك للعيون الباكيه
مِنْ مُصْبِياتٍ جُوَّعٍ تمسى وتصبح طاويه
مَنْ يُرْتَجى لدفاع كَرْ بِ ملمَّةٍ هى ماهيه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه
أَلقيتُ أخبارا إلـ ـيك من الرعية شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقترب من العامة بزهده وما صوّر فيه من بؤسها وأوصا بها فحسب ، بل كان يقترب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشتقه اشتقاقًا من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد منهم أن يفهمه ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تَخْفَى على جمْهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاّب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . . والعامة ، وأعجبُ الأشياء إليهم ما فهموه[2] » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكّدها تأكيداً شديداً

---

(١) الديوان ص ٣٠٣ .
(٢) أغانى ٤/٧٠ .

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغانى إنه كثير الساقط المرذول[١] . وينبغى أن لا نبالغ مبالغة أبى الفرج ، فقد كانت لأبى العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة فى موضعها أو كلمة لم تحلّ فى نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع[٢] ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتى يبادر بصنع الشطر الثانى تَوًّا على البديهة[٣] . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا فى الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل فى بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع فى ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل فى عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض[٤] يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسنُّ منه ، ولا نشك فى أن ديوانه لو وصلنا كاملا لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبْعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تاماً لكثرته .

٤

مسلم[٥] بن الوليد

وُلد فى الكوفة حوالى سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة فى تصحيح نسبته ، فقيل إنه خزرجى من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقْبلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفى أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالى الفرس ، ووُلد قبل

---

(١) أغانى ٢/٤ وانظر رأى الأصمعى ص٤٠ .
(٢) أغانى ١٣/٤ والبيان والتبيين ١١٥/١ .
(٣) أغانى ٣٩/٤ والحيوان ١٣٧/٥ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٣/٤ .
(٥) انظر فى أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٩٦/١٣ وترجمته بالأغانى الملحقة بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقة بنشرة سامى الدهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد ترزى (طبع بيروت) .

مسلم ابْنٌ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفًا ، كما كان شاعرًا مُجيداً ، ويُجْمع الرواة على أنه كان زنديقًا وأن الذى لقّنه زندقته بشار[١] ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجيبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِل عنه ذلك الدين[٢] » . وفى اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويَعُوله ، وفى ديوان مسلم قصيدة طويلة[٣] يذكر فيها مقامه أولا بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهو .

وفى ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب فى أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعْرَف عنه شيء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ على عَيْبها الدُّنيا وصدَّقها ما استرجع الدهرُ مما كان أعطانى

قد أخذ معناه من التوراة[٤] . وفى أشعاره من التعمق فى الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمى البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعانى والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضًا فى أشعاره ما يدل دلالة بينة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلى والإسلامى ، فقد أُشْرِبَتْه روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضًا بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت فى نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجيل العباسى الأول التحامًا قوياً خصبًا .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

---

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٥٥ ونكت الهميان ص ١٦١ وفى الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٣/٢٠٢ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ٤/١٩٥ .

(٣) راجع الديوان (طبع دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٤) انظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته فى موطنه الأول الكوفة ولا فى البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصرى يسمى ابن قُنْبُر ، عُنِى بأن يَرُدَّ على الطرماح الشاعر الأموى الخارجى أهاجيه فى قبيلته تميم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى انتصر لها الطرماح ، وامتعض مسلم لمواليه من الأنصار الأزديين اليمنيين ، وزجَّ بنفسه معه فى معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجذبت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويَحْظَى بما حظى به أعلام الشعراء فى عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعْرَف بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن فى أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا لمديح يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفى سليمان سنة ١٧٩ للهجرة . وفى أخبار مسلم أنه كان يمدح مَنْ دون الخليفة ولا يطمح إليه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَنْ لا يوازينى فى أدب . ويدل ذلك على أنه ظل فى بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه . وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن مزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف الخارجى فى سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفى ديوانه قصائد أربع فى مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله فى مقدمتها :

هل العَيْشُ إلا أن أروح مع الصِّبا ... وأغدو صَرِيعَ الرَّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ [1]

قال له : أنت صريع الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا يُعْرَفُ إلا به [2] . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله [3] :

---

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح : الخمر .

(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥٤ .

خليفةَ اللهِ إن النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ ... عليك مُذْ أنت مَبْلُوٌّ ومُخْتَبَرُ

أعددتَ للحرب سيفًا من بنى مطَرٍ ... يمضى بأمرك مخلوعًا له العُذُرُ[1]

لاقى بنو قَيْصَرٍ لما هممتَ بهم ... مثل الذى سوف تلقى مثلَه الخَزَرُ

لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً ... خَرْقاءَ حصَّاءَ لا تبقى ولا تَذَرُ

أظلَّهم منك رُعْبٌ واقفٌ بهِمُ ... حتى يوافق فيهم رَأْيَكَ القَدَرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن مزيد الشيبانى ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله[2] . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلات كثيرة ، حتى ليقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم[3] . وتقرن أخباره إعجابَ الرشيد به بإعجابه بمديحه لقائده يزيد ابن مزيد الشيبانى ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم إكبابًا جعل الخليفة يَنْفَس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخلَّص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضْطَرّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن مزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجب برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحَقِّ أمير المؤمنين لأصيِّفَنّ وأشْتُوَنّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسُرَّ وأقبل يصيح : مرحبًا بالأعرابى ، حتى دخل وأجْلس وأكرم[4] » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة[5] :

---

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان (طبع دار المعارف) ص ٣٦٩ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ١٢/٩٦ وما بعدها .

(٥) هى أولى قصائد الديوان .

أُجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِل وشمَّرتْ هِمَمُ العُذَّال فى العَذَلِ[١]

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغْدق عليه نواله الغَمْر ، حتى ليقال إنه أعطاه فى إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعه إقطاعات تُغِلُّ مائتى ألف درهم . ولما ولّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفى سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو فى القصيدة الأولى ينوِّه بانتصاراته فى حروب الروم وظفره ببوسف البَرْم الثائر فى خراسان لعهد المهدى ثم الوليد بن طريف الخارجى الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه فى القصيدة الثانية وهى التى يستهلها بقوله[٢] :

طَيْفَ الخيالِ حَمِدْنا منك إلماما داويتَ سُقْماً وقد هَيَّجْتَ أسْقاما

يتغنَّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكى بباب الرشيد ، وكان يسمى فتى العسكر لبلائه فى الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات منثورة فى ديوانه ، وهو فى إحدى قصيدتيه ، وهى التى افتتحها بقوله[٣] :

عاصَى الشبابَ فراحَ غيرَ مفنَّدِ وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ[٤]

يشيد طويلا بانتصاره فى بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوِّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان فى عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكاً ذريعاً لعهد الخليفة المنصور[٥] . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفى ديوانه بيتان فى مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة فى مديح ابنه جعفر ، وهو فى القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

---

(١) أجررت حبل خليع كناية عن تركه يصنع ما يشاء .
(٢) الديوان ص ٦١ .
(٣) الديوان ص ٢٣٠ .
(٤) مفند : ملوم .
(٥) النجوم الزاهرة ٢ / ٢١ .

بالشام سيَّره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة[١] ، يقول[٢]:

أعطى المقادةَ أهلُ الشام حين غَشُوا من جَعْفرٍ بِهَناتٍ مالها حِوَلُ

وأبدع قصائده فى البرامكة لاميته فى الفضل بن جعفر ، وهى تُعَدُّ من روائعه[٣] وإذا صح أن من سماه إسماعيل فى قصيدته: « وإنى وإسماعيل يوم وداعه »[٤] من البرامكة كانت هى الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن مزيد يتصل بداود بن يزيد المهلبى أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند سنة ١٨٤ فرَمَّ ما فيها من شعث بين اليمنية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ، ويقال إنه «كان يجلس للشعراء فى السنة مجلساً واحداً فيقصدونه ذلك اليوم وينشدونه مدائحه ، فوجَّه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه[٥] :

لا تَدْعُ بى الشَّوْقَ إنى غير معمودِ نَهَى النُّهَى عن هَوَى البِيض الرَّعاديدِ[٦]

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهى إحدى فرَائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته فى « كِرْمان » وسجستان ومن فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير استقامة .

ونرى مسلما يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة فى عهد الرشيد ، وفى مقدمتهم يعقوب[٧] بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدة[٨] زوج الرشيد ، وسهل[٩] بن الصباح المدائنى ، وكان من مقدَّمى رجال الدولة وأجوادهم[١٠] ، والحسن[١١] بن عمران الطائى والى الرشيد على دمشق[١٢] ، وزيد ابن مسلم الحنفى أحد قواده ، وقد نوَّه به وبكرمه وشجاعته وبلائه فى الحروب فى

---

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ و ٤٦٦ .
(٢) الديوان ص ٢٥٠ .
(٣) الديوان ص ٢٦٠ .
(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسمط اللآلىء ٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٨٠ .
(٥) الديوان ص ١٥٦ .
(٦) معمود : عاشق . الرعاديد : المرتجات الأكفال .
(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٥٦ .
(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
(١٠) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها
(١١) الديوان ص ٢٥٧ .
(١٢) زهر الآداب ٤/٨٢ .

قصيدتين[١] بديعتين . وتمضى معه إلى عصر الأمين فنراه يمدحه بقصيدته[٢]:

شُغْلى عن الدار أبكيها وأرْثيها إذا خلتْ من حبيبٍ لى مَغانيها

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه فى الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤[٣] . ولا يلبث الأمين أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مَرْو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل . وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون[٤] ، ونظن ظنًّا أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة على الفضل بن جعفر البرمكى فقد كان ابن سهل يخدمه أولا ثم التحق بخدمة المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أو أثْنَوْا بعلمهمِ ونبّأتْ عن معالى دهرك الكتبُ
لم يبلغوا منك أدنى ما تَمتُّ به إذا تفاخرتِ الأملاكُ وانتسبوا

فأمر له عن كل بَيْت من هذه القصيدة بألف درهم[٥] ، وقد سقطت من ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له فى المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان[٦]:

وردتْ على خاقان خَيْلُك بعدما كرِهَ الطِّعان وقد أطَلْنَ عِراكا
حتى وَرَدْن وراء «شاشَ» بِمَنْزِلٍ تَركتْ به نَفَلاً له الأتراكا

وأيضًا فقد سقطت له قصيدة ثالثة فى الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت واحد[٧] ، وحظى عنده حُظْوَة كبيرة جعلته يولّيه جرجان أو بعض ضياعها أو بَريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف فى الروايات[٨] . ولعل

---

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢١٦ .
(٣) اليعقوبى ٣/١٦٥ .
(٤) ابن الطقطقى ص ١٦٦ .
(٥) ترجمة مسلم فى الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٨٠ .
(٦) الديوان ص ٣٣١ .
(٧) الديوان ص ٣٠٧ .
(٨) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم فى العام، وما زال بجرجان حتى لبّى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلما أخذ يعيش فى هناءة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثانى ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولّى جُرْجان . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفْسَحُ فى حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس فى ذلك انغماس أبى نواس وأخدانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شىء يؤكد أن حياته فى أسرته كانت تجرى رُخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل فى حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفيما قدمنا ما يدل دلالة بيّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره فى المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطتْ من يد الزمن . ومما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التى أنشدها الرشيد والتى لقّبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغوانى » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب[1] ، ومع ذلك لم يبق منها فى الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوما وبيده دفتر ديوانه ، فقذف به فى بحر ! ولهذا قَلّ شعره ولم يبق منه بأيدى الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان فى أيدى الممدوحين من مدائحه[2] . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حوّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له فى أيدى الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثانى للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه فى صنع الشعر ، كما

---

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .
(٢) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلا لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والجديد فى نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية فى المزج بينهما ، مفكراً فى كل التراث الشعرى الذى سبقه وناقداً ومحللا مستنبطاً . وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف فى وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً فى صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعــروف بالبديع ، وهو الذى أعطاه لقبه[١] » . وحقاً نجده مبثوثاً فى أشعار بشار وأبى نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتى عندهم فى الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذه وكْده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز فى كتابه « البديع » أن يردّ البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربى الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع فى شعره لم يعتمد على أصول تزكّيه ، فقد كان منبثاً فى العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به فى خفة ، ثم عُنى به العباسيون منذ بشار ، حتى ليجعله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه[٢] . ولا نستطيع أن نجرى مع الجاحظ فى ردّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذه مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذه مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلا معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أُشْرِبت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجرى فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليبث فيه مسلم بديعه ، ولينميه مع روح عصره ، وليصبّ فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو فى ذلك يتكلف

(١) ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ /٥١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعًا نفسه ومتأنيًا محتاطًا ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . ولعله لم يمنح موضوعا عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الخمر، أو وصف السفن فى طريقهم إلى ممدوحيهم. حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصوِّر زاده الأصيل من التراث الفنِّى مضيفًا كثيراً من المعانى والصور البديعة ، واقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيدُ لأَضحى الملكُ مطَّرَحاً ... أَومائلَ السَّمْك أومُسْتَرْخِيَ الطِّوَلِ(١)
يَغْشَى الوَغَى وشهابُ الموت فى يدهِ ... يَرْمِى الفوارسَ والأَبطال بالشُّعَلِ(٢)
موفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأَنه أَجَلٌ يسْعَى إلى أَمَـلِ(٣)
لا يَرْحَلُ الناس إلا نَحو حُجْرَتِه ... كالبيت يُفْضِى إليه مُلْتَقَى السُّبُلِ(٤)
يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به ... ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُلِ(٥)
قد عَوَّد الطَّيْرَ عادات وثِقْنَ بها ... فهنَّ يَتْبَعْنَه فى كل مُرْتَحَل
تراه فى الأَمن فى دِرْعٍ مضاعفةٍ ... لا يـأْمن ـ الدهرَ ـ أن يُدْعَى على عجل
لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْه ومَفْرِقَه ... ولا يُمَسِّح عينيه من الكُحُلِ(٦)

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوٌّ ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

(١) مطرحاً : مخذولا . الطول : الحبال . وقد ضرب السمك والطول مثلا لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد حبالها.
(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل اللهيب المتساقط من الشهاب .
(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار الحرب .
(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكبيها عند الممدوح لجوده الغمر .
(٥) الهام : الرءوس . الذبل: الرقيقة الحادة.
(٦) لايمسح عينيه من الكحل : لايكتحل .

الأول من البادية وخيامها وما يُطْوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهى فى يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالا . ومضى فى البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير فى بيته الرابع ، إذ يقول فى مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرقا

ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً فى بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك فى بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً فى رحلاته واثقة بما سيُميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهى دائماً مرفرفة فوقه . ومثّله فى البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه فى أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال . واقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها لبسالته وبطولته :

موحَّدُ الرأى تنشقُّ الظنون له عن كل ملتبسٍ منها ومعقودِ [1]

كاللَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَصُور إذا غَنَّى الحديد غناءً غيرَ تغريد

يلقى المنيَّةَ فى أمثال عُدَّتها كالسَّيْل يقذف جُلمودًا بجلمود

يجود بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر فى شىء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث فى انقضاضه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذه قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة فى إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

---

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مديحه قوله فى الفضل بن جعفر البرمكى :

تُساقط يُمْناه النَّدَى وشماله الـ ... ـرَّدَى وعيونُ القول مَنْطقه الفَصْلُ [١]
عَجولٌ إلى مايُودِعُ الحَمْدَ مالهُ ... يَعُدُّ النَّدَى غُنْماً إذا اغتُنم البُخْل
بكفِّ أبى العباس يُسْتَمْطَرُ الغِنَى ... وتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى ويَسْتَرعِفُ النَّصْلُ [٢]

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهى متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظرْ فى البيت الأول كيف صوَّر تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق فى البيت الثانى بين الكرم والبخل ، وعاد فى البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله فى إسماعيل البرمكى :

وإنى وإسماعيلَ يوم وداعهِ ... لكالغِمْد يوم الرَّوْع فارقه النَّصْلُ
فإن أغْشَ قوماً بعده أو أَزُرْهمُ ... فكالوحش يُدْنيها من الأَنَسِ المَحْلُ [٣]

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله فى ألف سنة [٤] » . وفى نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مراثيه على شاكلة قوله فى رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضَتْ بك الآمالُ أَحْلاسَ الغِنَى ... واسترجعتْ نُزَّاعَها الأَمصارُ [٥]
أَجَلٌ تنافسه الحِمامُ وحفرةٌ ... نَفِسَتْ عليها وجهك الأَحْفَارُ [٦]
فاذْهَبْ كما ذهبتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ ... أَثْنَى عليها السَّهْل والأَوعارُ [٧]

والصورة فى البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة فى طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

---

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .
(٢) يسترعف : يقطر دماً . النصل حد السيف .
(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ، المحل : الجدب .
(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .
(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . نزاعها : الذين ينزعون إليه و ينتزعون عن أوطانهم .
(٦) الحمام : الموت .
(٧) المزنة : السحابة الممطرة .

تهيِّئ الإبل للارتحال نحوه . وجعل فى البيت الثانى الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالى . ودعا له متمثلا جوده الذى عمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه فى الرثاء قوله :

ومخادعِ السمع النَّعِىّ ودونه خَطْبٌ ألمَّ بصادقٍ لا يَخْدَعُ

وهو يصور فى البيت ذهول الصديق حين يأتيه نعى صديقه فيفزع إلى تكذيبه ، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائض فى الهجاء ناقض بها ابن قنبر ، وهو فى هذه النقائض يصدر عن روح النقائض القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطْوَى فيها من عصبيات ، ويتكافآن فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ فى النمط المستحدث الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجرى فى أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله فى دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أما الهجاءُ فدقَّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهَبْ فأنت طليقُ عِرْضك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنت ذليل

وتُرْوَى له أبيات فى هجاء يزيد بن مزيد ، وأكبر الظن أنها منتحلة أو لعلها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمة وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يَبَرَّاه ، واستشاط غضبًا ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله فى موسى :

لو أنَّ كَنْزَ البلاد فى يَدِهِ لم يَدَعِ الإعتذار بالعُدُمِ[1]

وقوله فى سعيد :

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها الباخلين حتى وَمِقْتُ ابنَ سَلْمٍ سعيدا[2]
إذا سِيل عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثيابًا من اللُّوم صُفْرًا وسودا[3]

وكان لا يزال يدقق فى معانى الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

---

(١) العدم : فقدان المال (٢) ومقت : أحببت .
(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخُلُقه :

قَبُحَتْ مَناظره فحين خَبَرْتُهُ حَسُنَتْ مَناظِرُهُ لقُبْحِ المَخْبَر

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة فى المعانى والصور كان مسلم ينظم فى الحب والخمر ، سواء أودعهامقدمات مدائحه أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور متزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أَبيتَ موسَّدًا ـ صريعَ مُدامٍ ـ كفَّ أَحْوَرَ أَكْحَل[1]

وكان لا يزال يبقى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو فى غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحبه الذى يلذع فؤاده من مثل قولـــه :

إن كنتِ تَسْقين غير الرَّاح فاسقينى كأْساً أَلَذُّ بها من فيكِ تَشْفينى
عيناكِ راحى ، وريحانى حديثُك لى ولونُ خَدَّيك لونُ الورد يكفينى

وقوله :

ولما تلاقينا قضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بوجهٍ كوجه الشمس ما إنْ له مِثْلُ
وخالٍ كخال البَدْر فى وجه مِثْلِهِ لَقِينا المُنَى فيه فحاجَزنا البَذْل

وقوله :

وأَقسمتُ أَنسى الداعياتِ إلى الصِّبا وقد فاجأَتْها العَيْنُ والسِّتْرُ واقعُ
فغطَّتْ بأَيديها ثِمارَ نُحورها كأَيدى الأَسارَى أَثْقَلَتْها الجَوامع[2]

والخمر عند مسلم تأتى غالبًا فى مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ مجوسيَّةِ الأَنساب مسلمة البَعْل

(١) المدام : الخمر .
(٢) الجوامع : الأغلال والقيود .

قد استُودِعتْ دَنًّا لها فهْو قائمٌ بها شَفَقًا بين الكروم على رِجْل
شَقَقْنا لها فى الدَّنِّ عَيْنًا فأَسْبَلَتْ كأَلسنة الحَيَّاتِ خافتْ من القَتْلِ[1]

وقد جعلها فى البيت الأول من بنات المجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماه بَعْلا أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما فى البيت الثانى فقال إنها ظلت طويلا فى شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنوًّا عليها . وقال فى البيت الثالث إنهم شقُّوا لها فى دَنّها ثُقْبًا وهى تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها ألسنة حيَّات ترتجف من القتل ، فهى لا تكف عن إرسالها لها خوفًا وفزعًا . ومسلم من أمهر الشعراء وأدقهم فى التصوير ، وهى دقة تتراءى فى جميع جوانب ديوانه من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحولها لطول السَّفر :

إلى الإمام تهادانا بِأَرْحُلِنا خَلْقٌ من الرِّيح فى أشباح ظِلْمانِ[2]
كأَن إفلاتها والفجرُ يأخذها إفلاتُ صادرةٍ عن قَوْس حُسْبانِ[3]

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصوَّرها فى ضمورها كأنها ذكور نعام وهى تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهى لا تنى عن الانطلاق والعَدْو الشديد . وقد نوَّه القدماء طويلا بتصويره للسفينة بمثل قولـــه :

إذا أقبلتْ راعتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ وإن أدبرتْ راقتْ بقادِمَتَىْ نَسْر[4]
أُقِلَّتْ بِمجدافين يعتورانها وقَوَّمها كَبْحُ اللِّجام من الدُّبْر[5]
كأَن الصَّبا تحكى بها حين واجهتْ نسيمَ الصَّبا مَشْىَ العروس إلى الخِدْرِ[6]

وهو يشبه فى البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيها بجناحى نَسْر ، ويرسم صورتها فى البيت الثانى بمجدافيها وسُكَّانها الذى يقوِّم جموحها .

---

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت
(٢) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص . ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .
(٣) إفلاتها سرعتها وانبعاثها فى السير . صادرة راجعة . قوس حسبان : ضرب مشهور فى عصرهم من القسى .
(٤) راعت : أفزعت . قنة قرهب : رأس ثور وحشى . قادمتا النسر : جناحاه ، أراد بهما المجدافين .
(٥) أقلت : ارتحلت وسارت .
(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

أما فى البيت الثالث فيشبهها فى سيرها الوئيد بالعروس فى سيرها الرفيق إلى حِدْرها .

وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعانى والصور ، مضيفًا إلى ذلك حُلَى كثيرة من وَشْى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو فى ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاوجا بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التى تلذ الأسماع العربية ، وإذا هى تفسح لمذهب البديع الجديد بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

٥

أبو تمام [١]

هو حبيب بن أوس الطائى ، وُلد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ [٢] . والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى [٣] ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيًا [٤] يسمَّى تدوس وأنه حرَّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ . وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبنَى

---

(١) انظر فى أبى تمام وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٦ / ٣٨٣ وتاريخ بغداد ٨ / ٢٤٨ والموشح ص ٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ هـ) ١ / ١٥٠ وتهذيب ابن عساكر ٤ / ١٨ وشذرات الذهب ٢ / ٧٢ ومرآة الجنان ٢ / ١٠٢ وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى وأخبار أبى تمام للصولى وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى تمام ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢١٩ " وأبو تمام الطائى : حياته وحياة شعره » لنجيب محمد البهبيتى ، وأبو تمام » لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح التبريزى وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ، وسنرجع إلى هذه الطبعات ، وما ليس فيها سنرجع فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر فى ميلاده وفيات الأعيان وأخبار أبى تمام للصولى ص ٢٧٢ .

(٣) الصولى ص ٢٣٥ .

(٤) الصولى ص ٢٤٦ وانظر النجوم الزاهرة ٢ / ٢٦١ .

طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل[١] ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان[٢] . ونصرانية أبيه — إن صحت — لا تنفيه من العرب ولا من طيئ ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهورٌ من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صَليبة[٣] ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوَّه تنويهاً عظيماً بمن سجَّلوا لها فى عصره أمجاداً حربية ، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضًا فى نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يسقّى الناس فى مسجدها الكبير ، وأكثرُ المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنيين والطائيين فى بلدته وفى حمص مثل نوح بن عمرو السَّكْسَكِىّ وبنى عبد الكريم الطائيين . ونراه يولِّى وجهه نحو مصر قاصداً عيَّاش بن لهيعة الحضرمى الذى كان يقوم أحيانًا على شرطتها وخراجها ، وله يقول فى إحدى مدائحه[٤]:

وأنت بمصر غايتى وقرابتى بها وبنو الآباء فيها بنو أبى

وهو يشير دائمًا فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله ، ويلجّج فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازورَّ عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش ، غير أن فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة ، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرَّف على عبد الله بن طاهر فى ولايته على مصر (٢١١ — ٢١٣ هـ) وقد نوَّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفى ديوانه بيتان هجا بهما

---

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩ وانظر مقالته عنه فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٢/٧٢ .

(٣) الأغانى ١٦/٣٨٣ وجمهرة العرب لابن حزم (الطبعة الثانية بدار المعارف) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١/١٦٢

المطلب بن عبد الله الخزاعى معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطه ، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك ، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحاً مريراً ، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حاراً أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتل به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى ، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له[١] :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرَّقَّتَيْن وبالفُسْطاط إخوانى
وما أظن النَّوَى ترضى بما صنعتْ ... حتى تشافه بى أقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية فى نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره فى خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمرأى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها فى صحبة محمد بن حسان الضبى إلماما قصيراً[٢] ، وفى ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذى كان جوده الغَدِق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول[٣] :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأتبعها ... إلى المشيب ولم تظلم ولم تَحُب[٤]

فإذا صح أنه مدحه بها فى بغداد فإنه يكون قد زارها وهو فى السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلا بينه وبين موطنه ،

---

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٣٠٩ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٣) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/١١٥ .
(٤) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

وربما بدأ مديحه لمالك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المثول بين يدى المأمون فى إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كَشْفِ الغطاء فأوقدى أو أخْمدى) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول[١] :

وانتاش مصر من اللُّتَيَّا والتى ... بتجاوزٍ وتعطُّفٍ وتعمُّدِ

والمعروف أن المأمون زار مصر فى أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم فى غير جبهة ، وتقدَّم بنفسه إلى حصن « لؤلؤة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح فى آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات فى ميميته للمأمون تغنيا بديعًا بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها فى القتال[٢] :

مُسْترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحامُ
آسادُ موتٍ مُخْدِراتٌ مالها ... إلا الصَّوارمَ والقنا آجام[٣]

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجَّل له انتصاراً حربيًّا ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده ، يقول[٤] :

ولما رأى تُوفِيلُ راياتك التى ... إذا ما اتلأَبَّتْ لا يقاومها الصُّلْبُ[٥]
تولَّى ولم يأْلُ الرَّدَى فى اتِّباعه ... كأن الرَّدَى فى قصدهِ هائمٌ صَبُّ
كأن بلاد الروم عُمَّتْ بصيحةٍ ... فضمَّتْ حَشَاها أورَغا وسْطها السَّقْبُ[٦]

---

(١) الديوان ٢/٤٨ . انتاش : خلص .
(٢) الديوان ٣/١٥٦ .
(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها . آجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف .
(٤) الديوان ١/١٩٧ .
(٥) اتلأبت : تتابع هزها . الصلب : جمع صليب ، ويريد النصارى .
(٦) السقب : ولد الناقة التى عقرتها ثمود فصارت شؤماً عليهم وهلاكاً لهم .

وأما القائد الثانى فجعفر الخياط ، على أنه لم يتوسع فى تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظنًّا أنه لقى فى هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء فى بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان فى المَصيصة إحدى ثغور الشام [١] ، وفى بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحه لعمورية فى سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه فى إحدى مدائحه له يقول [٢] :

أَربيعَنا فى تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقًّا لَهِنَّكَ للرَّبِيعُ الأَزْهَرُ [٣]

وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، وتراه يشيد بانتصاراته على المحمِّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨ ، ٢١٩ إشادات رائعة [٤] . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر والى خراسان ، واستقبله هو ومن حوله من الكُتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هُنَّ عوادى يوسف وصواحبه) نَثَر عليه ألف دينار . وقد دبَّج قصائد كثيرة فى رئيس ديوانه وكُتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبانة وأيضًا فى كثير من العُمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدى وعلى بن مرّ ، ونوَّه فى طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء والى فارس . وفى عودته نزل بهمذان على أبى الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنِّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبع له شرحان : شرح التبريزى وشرح المرزوقى ، وهو يصوِّر لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبى تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربى ودرره النفيسة فى القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرَّمى وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قُوَّاد المأمون ، وما تُوافى

---

(١) الصول ص ١٤٤ .

(٢) الديوان ٢/١٩٣ .

(٣) لهنك : لغة فى لإنك .

(٤) الديوان ٣/١٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التى تنازل أتباعه من الخرَّمية فى الجبال وأرمينية وأذْرَبيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حينئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيِّى فيه قبيلته طيِّئاً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثَمَّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله فى ملحمة رائعة . ومجَّد بجانبه بطلاعربيًّا ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دُلَف العجلى ، وكان فارسًا مغواراً ، وغَيْثًا مدراراً ، فنوَّه به تنويهًا رائعًا . وأخيراً فى أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرَّ مَنْ رَأَى ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقُتل وقُطِّع جسده وصُلب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكثه بالعهود . وأخذ الشعراء وفى مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هى : (غدا الملك معمور الحمى والمنازل) و(آلت أمور الشرك شرمآل) و (بَذَّ الجلادُ البَذَّ[1] فهْو دفين) . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زِبَطْرة بالقرب من سُمَيْساط والحدث فى طرف بلاده ، واستشاط المعتصم غضبًا ، فجهَّز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه فى آسيا الصغرى تمحق الروم محقًا ، وتوطئهم صَغارا وذلا . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى فى تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنَّى به وبانتصاراته طويلا على نحو ما تصور ذلك قصيدتاه : (لا أنت أنت ولا الديار ديارُ) و (ما عهدنا كذا نحيبَ المشوق) وهو فيهما يسمِّى كثيراً من الحصون الرومية التى افتتح أقفالها ، مصورا كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة . ودُرَّة تلك الحروب قصيدته فى عمورية التى امتدح بها المعتصم : (السيف أصدق أنباء من الكتب) وهى ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبى تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبى دؤاد مستشار المعتصم وقاضى قضاته ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيَّار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرَّ من رأى » فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويُصْلب

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون ، ويموت ، فيُصْلب بجانب بابك ، ثم يُحْرَقُ بالنار التى كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة[١] :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِى فحذارِ من أَسَد العَرِين حذار

وقد صوَّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعهِ حتى اصطلى سِرَّ الزِّناد الوارى[٢]
نارًا يُساور جسمه من حَرِّها لهبٌ كما عَصْفرتَ شِقَّ إزارِ[٣]
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَها مَيْتاً ويدخلها مع الفُجَّارِ
ولقد شَفَى الأَحشاءَ من بُرَحائها أن صار بابَكُ جارَ مازيَّار
سودُ الثيابِ كأَنما نسجتْ لهم أَيدى السَّموم مَدارعًا من قارِ[٤]
كادوا النبوَّة والهدى فتقطَّعتْ أَعناقُهم فى ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥ وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغرى وخالد بن يزيد والى أرمينية ومالك بن طوق التغلبى والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم الرافقى والى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزَّاه بقصيدته البديعة : (ما للدموع تروم كلَّ مرام) ويُضْفى عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ ملله

---

(١) الديوان ٢ / ١٩٨ .
(٢) يشير بسر الزناد الوارى إلى حرقه بالنار .
(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على الجذع . ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفر نصفه طولا .
(٤) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك ومازيار ، وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار الرياح .

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقى ، فتمنى لو صار له عمل فى الدولة يدر عليه ما يكفيه مئونته ، وسرعان ما حقق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعينه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فبكاه وبكى بطولته بكاء حاراً ، ولا يدور العام حتى يلبى داعى ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول[١] :

فُجع القريضُ بخاتم الشعراءِ وغَديرِ روضتها حبيبِ الطائى
ماتا معاً فتجاورا فى حُفْرَةٍ وكذاك كانا قَبْلُ فى الأَحياء

ويقال إن بنى حُميد الطوسى بنوا على قبره قبة خارج باب الميدان على حافة الخندق[٢]

وأخبار أبى تمام فى أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية فى زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف[٣] . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثرا. ويقول الصولى إنه كان أسمر طُوالا ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدى المعتصم وغيره[٤] . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً[٥] تسعفه فى ذلك بديهة حاضرة . وفى ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه فى عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظناً أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق فى سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفى القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول فى مطالعها[٦] :

وإن نَكِيرًا أنْ يضيق بمن له عشيرةُ مثلى أو وسيلتُه مِصْرُ

---

(١) الصولى ص ٢٧٧ .
(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٤٩ .
(٣) الصولى ص ١٤٤ .
(٤) الصولى ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣ .

ونراه فى أول قصيدة لتى فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقرباً إليه وزُلْفَى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثا عن قصيدته[١] :

ووسيلتى فيها إليك طريفةٌ   شامٍ يدين بحبِّ آل محمَّدِ
نِيطتْ قلائدُ عزمه بمحَبِّرٍ   متكوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْدِدِ[٢]
حتى لقد ظن الغُواة ـ وباطلٌ ـ   أن قد تجسَّم فىَّ روح السيِّدِ[٣]

ومعنى ذلك أن تشيعه فى القصيدتين جميعاً إنما كان فى سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفى أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها[٤] ، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية[٥] . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضاً ففيه قصيدة وصَف بها حِجَّةً حجَّها[٦] . وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثاً أو ماجناً . يلهو ولكن بقسطاس وكأن خصومه حاولوا أن يغضُّوا منه فزيَّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذى يُذْكَرُ فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خَزَرىّ وكل منهما يتعشق غلام صاحبه[٧] ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنايا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبته .

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثَّلها تمثلا دقيقاً ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده[٨] لخالد بن

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥ .
(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه يحبر القصائد ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفى تشيعاً . متبغدد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .
(٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور بتشيعه .
(٤) الصولى ص ١٧٢ .
(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .
(٧) الصولى ص ١٩٤ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/١٩٤ وانظر ١/٨٧ وما بعدها .

يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويّها فى الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى فى تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبى على المحمِّرة بالجبل[١]، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله فى إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيبانى وانتصار قومه فى يوم ذى قار المشهور على الفرس[٢] :

لهم يومُ ذى قار مَضَى وهْوَ مُفْرَدٌ وحيدٌ من الأَشْباه ليس له صَحْبُ
به علمتْ صُهْبُ الأَعاجِمِ أنه بهِ أعربتْ عن ذات أنفسها العُرْبُ[٣]
هو المشهد الفَصْل الذى ما نَجا بهِ لكسرى بنِ كسرى لا سَنامٌ ولا صُلْبُ[٤]

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جدب شديد ، فابتغت الرَّعْىَ فى أرض العراق ، وكاتب والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم فى الرعى ؟ فاشترط أن يقدِّموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معى إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفَى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً فى مناقب بنى تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام فى قصيدة يمدح بها أبا دُلَف متحدثا عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذى قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميما منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقى على التاريخ ، يقول[٥] :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسها وزادتْ على ما وطَّدَتْ من مناقبِ
فأنتم بذى قارٍ أمالتْ سيوفكم عروشَ الذين اسْتَرْهَنُوا قوس حاجبِ
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوابها محاسنَ أقوامٍ تَكُنْ كالمعايبِ
مكارمُ لَجَّتْ فى عُلُوٍّ كأنما تحاول ثَأْرًا عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن تعمقه فى مذاهب المتكلمين وفى الفلسفة والمنطق تعمقًا جعله ينثر فى معانيه الأضداد المتنافرة نثراً يدخل البهجة على

---

(١) الديوان ٣ / ٣٠٠ وما بعدها .
(٢) الديوان ١ / ١٩٥ .
(٣) صهب : شقر شعر الرأس، ويوصف الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .
(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب هنا : كناية عن الخيل .
(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٢١٥

النفس بما يصور من تعانقها فى الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره فى الإحساس بحقائق الكون ، وبترابط جواهرها ، حتى الجواهر التى تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقى التقاء وثيقًا ، على شاكلة قوله[١] :

رُبَّ خَفْضٍ تحت السُّرَى وغناءٍ من عَناءٍ ونُضْرةٍ من شُحوبِ[٢]

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهى عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عذلته على ضيق ذات يده[٣] :

لا تُنْكرى عَطَل الكريم من الغنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وقوله فى تحبيب الرحلة عن الأوطان[٤]:

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مخلقٌ لديباجتيه فاغتربْ تتجدَّد[٥]
فإنى رأيت الشمس زيدتْ محبَّةً إلى الناس أن ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ[٦]

ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائمًا شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله[٧] ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع[٨] ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعًا ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربى فى عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح فى دقة معانيه وغوصه على طرائفها

---

(١) الديوان ١ / ١٢٦ .
(٢) الخفض : سعة العيش . السرى : السير ليلا ، غناء : نفع .
(٣) الديوان ٣ / ٧٧ .
(٤) الديوان ٢ / ٢٣ .
(٥) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .
(٦) سرمد : دائم .
(٧) انظر مناقشتنا لهم فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السادسة بدار المعارف) ص ٢٣٩ وما بعدها .
(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

النادرة ، محتكمًا إلى قانونى التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح فى روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعًا بحيث يصبح الزخرف عملا عقليا والعمل العقلى زخرفًا نادراً لا يكاد يتعلق به أحد .

والمديح أهم الأغراض التى تتجلّى فيها خصائصه ، وهو فى كثير منه ، بل فى جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التى تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يُخضع التفكير للشعر ، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب فى شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلا ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها فى معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله فى تصوير أيام عشقه الماضية[1] :

أعوامُ وَصْلٍ كاد يُنْسِى طولَها ذكرُ النَّوَى فكأنَّها أيامُ
ثم انبرتْ أيام هجرٍ أردفتْ بِجَوًى أسىً فكأنَّها أعوام
ثم انقضتْ تلك السنون وأهلها فكأنَّهـا وكأنَّهم أحْلام

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية فى هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه فى الغزل والنسيب قوله[2] :

أجدرْ بجمرةِ لوعةٍ إطفاؤهـا بالدَّمع أن تزداد طولَ وقودِ

وقوله[3] :

أحْلَى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهنَّ خُدودا

وقد ردَّد كثيراً فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضجراً متأففًا منه ومن سياسته الخرقاء[4] :

---

(١) الديوان ٣/١٥١ .
(٢) الديوان ١/٣٩٢ .
(٣) الديوان ١/٤١٥ .
(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

لقد ساسنا هذا الزمانُ سياسةً سُدًى لم يَسُسْها قَطُّ عَبْدٌ مجدَّعُ
تروحُ علينا كلَّ يوم وتغتدى خطوبٌ كأَن الدهر منهن يُصْرَعُ

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضًا فإنه هو الذى ألهم المتنبى اعتداده بنفسه وما طُوِىَ فى ذلك عنده من فخر محتدم ، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل[١] :

وغَرَّبْتُ حتى لم أَجد ذكرَ مشرقٍ وشرَّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ رَدَدْننى جريحاً كأَنى قد لقيتُ الكتائبا
وقد يَكْهَمُ السيف المسمَّى منيَّةً وقد يرجع المرءُ المظفَّر خائبا[٢]
وكنت امرءًا أَلقى الزمان مسالماً فآليتُ لا أَلقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحيانًا وصفًا لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمدًّا من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفًا طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر[٣] :

رعَتْه الفيافى بعد ما كان حِقْبةً رعاها وماءُ الروض ينهلُّ ساكبُهْ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنماهى التى رعته إذ أضمرته وأنحلته ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع . فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله[٤] :

---

(١) الديوان ١/١٤٧ .
(٢) يكهم : لايقطع .
(٣) الديوان ١/٢٣٠ .
(٤) الديوان ١/٣٤

وضعيفة فإذا أصابتْ فُرصةً قتلتْ كذلك قدرةُ الضعفاء
وكأنَّ بَهْجتها وبهجةَ كأسها نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوِعاء

وقد فسح فى مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه فى سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة فى عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله[١] :

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلا جاورتْه الأَبْرارُ فى الخلد شيبًا

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو لا يبارَى فى تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره لقُمْرية وقمرىّ وهما يرشفان رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترثى له السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع ، يقول[٢] :

غَنَّى فشاقك طائرٌ غِرِّيدُ لما ترنَّم والغصونُ تَمِيدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً فدعتْ تقاسمه الهوى وتَصيد[٣]
إلفان فى ظلِّ الغصون تألَّفا والتفَّ بينهما هَوًى معقودُ
يتطعَّمان بريق هذا هذه مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد[٤]
يا طائران تمتَّعا هُنِّيتُما وعِما الصباحَ فإننى مجهودُ
أبكى وقد تلتِ البروقَ مضيئةً من كل أقطار السماء رُعود
واهتزَّ رَيْعانُ الشباب فأشرقتْ لتهلُّلِ الشجر القرى والبيد[٥]
ومَضَتْ طواويسُ العراق فأشرقتْ أذنابُ مُشْرقةٍ وهنَّ حُفود[٦]

---

(١) الديوان ١/١٦٨ .
(٢) الديوان ٢/١٤٨ .
(٣) الساق الأول : القمرى أو ذكر الحمام ؛ والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده وترقعه فى شباكها .
(٤) مجعاً : حسواً .
(٥) يريد بريعان الشباب الربيع .
(٦) ومضت : لمعت وتلألأت . وحفود ، جمع حافد ؛ وهو الخادم .

يَرْفُلْنَ أمثال العَذَارى طُوَّفاً حول الدِّوار وقد تدانى العِيدُ [١]

وهى قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبى تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحب والطواويس المبتهجة بالربيع . ونراه فى إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم فى هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يتراءى فى طقسه والشتاء يتراءى فى زهره[٢] ، بل إن المطر فى الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يذوب الصَّحْوُ منه وبعده صَحْوٌ يكاد من النضارة يمطر

ويتسع به الخيال فإذا الندى الذى تترقرق حبّاته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لمم الثَّرَى ولحاه ، يقول :

ونَدًى إذا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثَّرَى خاتَ السحاب أتاه وهْو مُغَدَّرُ

ويمضى فى حُلْمه ، فإذا هو يرى نفسه فى رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه فى ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفد عليه من كل صَوْب ، يقول :

ياصاحبىّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تريا وجوه الأرض كيف تَصَوَّرُ
تريا نهارًا مُشْمِساً قد شابه زَهْرُ الرُّبَى فكأنما هو مُقْمِرُ

وله بائية[٣] فى مديح ابن الزيات استهلّها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلاله وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء فى هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة ، وكأنها بمقدماتها عمل فنّىّ نامٍ لا يزال بعضه يتولد من بعض .

---

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يطفن حوله فى الجاهلية .
(٢) انظر القصيدة فى الديوان ٢/١٩١ .
(٣) الديوان ١/٢٩٦ وانظر هبة الأيام ص٣٧ حيث نص على أنها فى ابن الزيات .

وإذا أخذنا ننظر فى معانى مديحه وجدناه يحاول دائمًا أن يستنبط منها مبتكرات طريفة مستمدًّا من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التى تحفل دائمًا بما يملأ النفس إعجابًا به وبشعره ، كقوله يصف جود أبى دُلَف[١] :

تكاد مغانيه تَهَشُّ عِرَاصُها فتركب من شوقٍ إلى كل راكبِ[٢]

وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله[٣] :

تعوَّد بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنَّهُ ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أنامِلُهْ
ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ روحِه لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمديحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسَّم فيها بطولتهم تجسيماً يدلع الحماسة فى قلب كل عربى ، ويضرمها إضراماً . ونراه يتغنى طويلا ببطولة محمد بن يوسف الثغرى الطائى وما أنزله من صواعق الموت على رءوس الخُرَّمية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون العدو فى الشمال ، والثلوج تغطى الطرق والآفاق[٤] :

لقد انْصَعْتَ والشتاء له وَجْهٌ يراه الرجالُ جَهْماً قَطُوبَا[٥]
طاعنا مَنْحَرَ الشمال مُتِيحاً لبلاد العدوِّ موتًا جنوبا
فى ليالٍ تكاد تُبْقِى بِخَدِّ الشَّمْس من ريحها البَليل شحوبا
فضربتَ الشتاءَ فى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غادرتْه عودًا رَكوبا[٦]
لو أَصَخْنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبا[٧]

وأمّ ملاحمه قصيدته فى عَمّورية التى مدح بها المعتصم مسجلا انتصاره العظيم على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجًا لا حدّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

---

(١) الديوان ١/٢١٢ .
(٢) العراص : الساحات .
(٣) الديوان ٣/٢٩ .
(٤) الديوان ١/١٧٣ وما بعدها .
(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ، القطوب : العبوس .
(٦) الأخدعان : العرقان البارزان فى العنق . العود : البعير المسن . ركوب : مذلل .
(٧) أصخنا : أرهفنا السمع . الوجيب : الخفقان .

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هى تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول[١] :

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به ... نَظْمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ
فَتْحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتَبْرُزُ الأَرض فى أثوابها القشُبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم فى الحضيض. ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأنما كان نصر جنود المعتصم فى يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هى تركع صاغرة تحت قدمى المعتصم وقد لطّخ الدم ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمتها النيران التهاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب فى نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُذكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التى تغنتْ بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرْتَ فيها بهَيمَ الليل وهو ضُحًى ... يَشُلُّه وَسْطها صُبْحٌ من اللَّهَبِ[٢]
حتى كأَن جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ ... عن لونها أو كأَن الشمس لم تغبِ
ضَوْءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ فى ضُحًى شحِبِ
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أَفَلَتْ ... والشمس واجبةٌ فى ذا ولم تجبِ[٣]
ما رَبْعُ مَيَّةَ معمورًا يُطيف به ... غَيْلان أَبْهَى رُبًى من رَبْعها الخرِبِ[٤]
ولا الخدودُ وقد أُدْمِين من خَجَلٍ ... أَشْهَى إلى ناظرى من خَدِّها التَّرِبِ

---

(١) انظر القصيدة فى الديوان ١/٤٥ .
(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .
(٣) واجبة ، آفلة : غاربة .
(٤) غيلان : ذو الرمة .

وواضح استمداده من قانون الأضداد فى وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق فى تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو فى الليل البهيم ويتصور كأنه فى الصبح المضيء ، بل هو فى الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت فى ربوع عمورية . فيا للحلم ويالروعته ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها فى نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التى شغفت قلبه حبًّا . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتى قال والجدل يغمره :

خليفةَ الله ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جُرْثومة الدين والإسلام والحَسَبِ[1]
بَصُرْتَ بالرَّاحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ
إن كان بين صُروف الدَّهْرِ من رَحِمٍ ... موصولة أو ذِمامٍ غير مُنْقضِبِ[2]
فبين أيامك اللاَّتى نُصِرْتَ بها ... وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَب
أبقتْ بنى الأصفر المراض كاسمهم ... صُفْرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجهُ العربِ[3]

وعواطفه الدينية والقومية بارزة فى هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها لتبرز فى جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذى تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحلت مكانها أضواء النصر فى كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلائم دائمًا بين مدحه وممدوحه ، فإذا مدح كاتبًا شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن فى مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتبًا شاعراً ، وجلّى فى وصفه لقلمه الذى أنشدنا منه قطعة فى الفصل الرابع والذى استهلّه بقوله[4] :

---

(١) جرثومة : أصل .
(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .
(٣) بنو الأصفر : الروم .
(٤) الديوان ٣/١٢٢ وما بعدها .

لك القَلَمُ الأعلى الذى بِشَباتِه تُصابُ من الأمر الكُلَى والمفاصلُ[١]

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطًا كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحسُّ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعًا فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف[٢] :

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاء فإننا نَغْدو ونَسْرِى فى إخاءٍ تالدِ[٣]
أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ومراثى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى ، وكان قد سقط — كما أسلفنا — فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمس — كما يقول الرواة — طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره[٤] وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله[٥] :

فَتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دَماً ضحكتْ عنه الأحاديث والذِّكْر
فتى مات بين الطَّعْن والضَّرْب ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مَضْرب سيفه من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوت الموت سهلا فردَّه إليه الحِفاظ المُرُّ والخلق الوَعْرُ[٦]
ونَفْسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرَّوْع إن فاته الكُفْر[٧]
فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أخْمَصِك الحَشْرُ[٨]

---

(١) الشباة : الحد .
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .
(٣) يكدى : لايثمر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .
(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والمحارم . الوعر : الصعب .
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفزع .
(٨) الأخمص : باطن القدم .

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما دَجَى لها الليلُ إلا وهْي من سُنْدُسٍ خُضْر[١]
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْر[٢]

وحقًّا قال أبو دُلف له : لم يمتْ من رُثى بمثل هذا الشعر[٣] ، فقد جسَّم فيه بطولة ابن حميد تجسيما رائعاً ، وما زال يتغنى ببطولته واستبساله فى قتال الأعداء حتى أبدله من كسوة الدم الزكى كسوة الفردوس السندسية . وجاءه نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وهو على بريد الموصل فبكاه بكاء حارًّا ،ونراه يتفجع تفجعاً كله حزن وأسًى على ابنيه محمد وأبى على وعلى أخ له حضَر وفاته وفيه يقول واصفاً لحظة النزع الأخير[٤] :

لله مقلتُه والموت يَكْسرها كأن أجفانه سَكْرى من الوَسَنِ[٥]
يردُّ أنفاسه كَرْهاً وتَعْطفها يَدُ المنية عَطْفَ الرِّيحِ لِلغُصُنِ

ويقال إنه مات لعبد الله بن طاهر ابنان صغيران فى يوم واحد، وهزَّه الخبر ، وحرَّك شاعريته ، فدخل عليه وأنشده مرثية بديعة يقول فى تضاعيفها[٦] :

نجمان شاءَ الله أن لا يَطْلُعا إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يَأْفِلا

وكان يجيد العتاب والاعتذار ، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مُضَر فى إحدى قصائده لأبى سعيد[٧] الثغرى الطائى ، فقد أحسَّ أنه أذنب ذنباً عظيماً وأخذ يستعطفه بمثل قوله[٨] :

أتانى عائرُ الأنباءِ تَسْرى عَقاربُه بداهيةٍ نآدِ[٩]
نَثَا خَبَرٍ كأن القلب أمسى يُجَرُّ به على شَوْك القتادِ[١٠]
كأن الشمسَ جَلَّلها كسوفٌ أو استترتْ بِرِجْلٍ من جَرادِ[١١]

(١) دجى : أظلم .
(٢) ثوى : مات .
(٣) الأغانى ١٦ / ٣٩٠ والصولى ص ١٢٥ .
(٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٥١ .
(٥) الوسن : النعاس .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٤٠ والصولى ص ٢١٧ .
(٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٣٧٨ .
(٩) عائر : سائر وذائع . نآد : عظيمة .
(١٠) نثا : ذائع ومنتشر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .
(١١) رجل هنا : طائفة .

بأنى نِلْتُ من مُضَرٍ وخبَّتْ إليك شَكِيِّتِى خَبَبَ الجواد[١]
لقد جازيتُ بالإحسان سُوءًا إذن وصَبَغْتُ عُرْفك بالسَّواد[٢]
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ومن جَدْواك راحلتى وزادى[٣]

ولم يَقْبل ابن أبى دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ودبَّج فيه قصيدة يستدرُّ عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديمًا بسليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . ونراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرِف به وأنه كيدُ حاسد لعل له فضلا إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول[٤] :

لولا التخوُّف للعواقبِ لم تَزَلْ للحاسد النُّعْمَى على المحسودِ[٥]

ولأبى تمام أوصاف كثيرة فى المطر والسحاب والشتاء وفى بعض الخلع التى كانت تُهْدَى إليه وبعض الخيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه فى تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد فى الهجاء ، ويقول الصولى إنه كان لا يجيب هاجيًا له حتى لا يَسْتَدِرَّ سبَّه[٦] . أما الفخر فله فيه قصائد ينوِّه فيها بقومه من طيئ تنويهاً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم[٧] :

أنا ابن الذين استُرضع الجود فيهمُ وسُمِّىَ فيهم وهْو كهلٌ ويافعُ
مضوا وكأن المكرمات لديهمُ لكثرة ما أَوصوا بهنَّ شرائع
بهاليلُ لو عاينتَ فَيضَ أكُفِّهم لأَيقنت أن الرزق فى الأَرض واسع[٨]

وتتوهج فى مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التى تسعى إلى الكمال واجدة لذتها فى هذا السعى

---

(١) خبت : من الخبب وهو ضرب من عدو الفرس .
(٢) العرف : الجود .
(٣) جدواك : عطاؤك .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٤٠٢
(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .
(٦) الصولى ص ٢٤١ .
(٧) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .
(٨) بهاليل : سادة .

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك فى ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذُّ كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله فى ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحبه ، وقد تعمقها الأسى لشيبه المبكر (١) :

يومى من الدهر مثلُ الدهر مشتهرٌ عَزْماً وحَزْماً وساعِى منه كالحِقَبِ
فأَصْغِرِى أنَّ شَيْباً لاحَ بى حَدَثاً وأكْبِرِى أننى فى المَهْد لم أَشِبِ
ولا يؤرِّقْك إيماضُ القَتير بهِ فإن ذاك ابتسامُ الرأى والأَدب (٢)
لا تنكرى منه تخديدًا تَجَلَّلَهُ فالسَّيْفُ لايُزْدَرَى أن كان ذا شُطَبِ (٣)

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضًا بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلئ الفريدة ، يقول (٤) :

مُفَصَّلَةٌ باللؤلؤِ المُنْتَقَى لها من الشِّعر إلا أنه اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ

وهي حقًّا لآلئ تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلىء سوَّى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

---

(١) الديوان ١/١١٦ .

(٢) يؤرقك : يسهدك . إيماض : لمعان . القتير : ابتداء الشيب وأوائله .

(٣) التخديد : الطرائق التى تبدو فى الخد والجبين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه التى تظهر فيه بسبب شحذه .

(٤) الديوان ١/٢٠٤ .